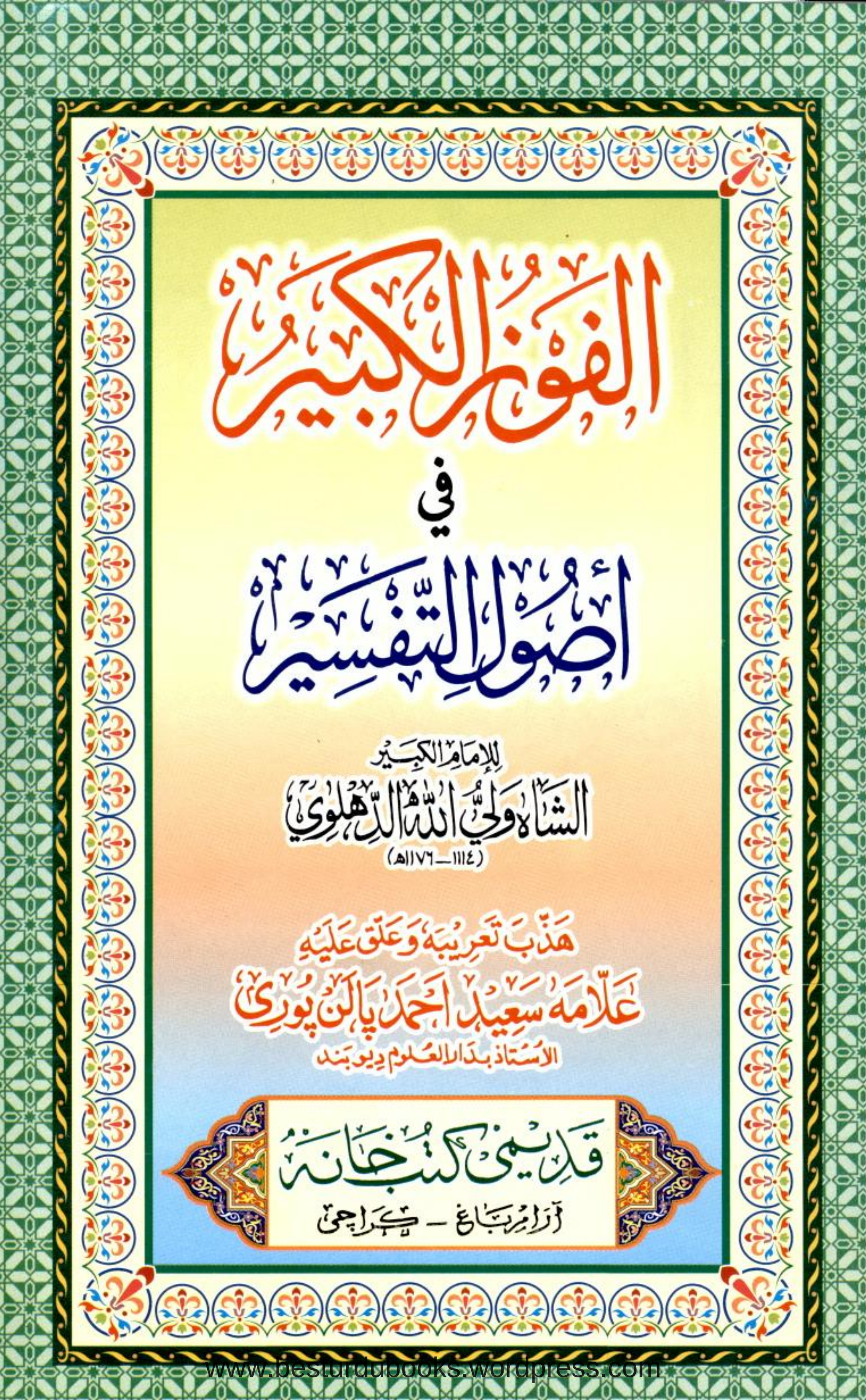
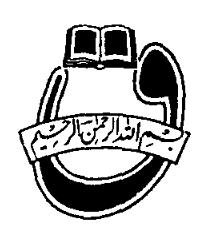


الفوز الكبير
في
أصول التفسير
للإمام الكبير
الشاه ولي الله الدهلوي
(١١١٤-١١٧٦ھ)
هذب تعريبه وعلق عليه
علامه سعيد احمد پالن پوری
الأستاذ بدار العلوم ديوبند
قديمى كتب خانه
آرام باغ - كراچى
www.besturdubooks.wordpress.com



الفوز الكبير
في
أصول التفسير

للإمام الكبير

الشاه ولي الله الدهلوي

(١١١٤ — ١١٧٦هـ)

هذّب تعريبه وعلّق عليه

علامه سعيد احمد پالن پوری

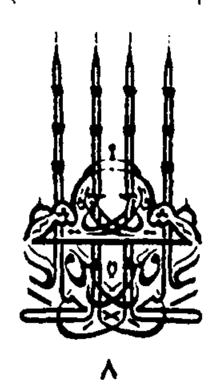
الأستاذ بدار العلوم ديوبند

قدیمی کتب خانہ

آرام باغ — کراچی



المحتوى





الحاجة إلى تهذيب التعريب

الحمد لله حمدَ الشاكرين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

الفوز الكبير في أصول التفسير: صنفه الإمام ولي الله رحمه الله لِطَلَبة العلوم الإسلامية بلغة فارسية مَحَلِّيَة حينذاك، وكان الكتاب موجَزًا مختصرا، فكان يدرِّس بدَوره طول حياته؛ ثم بعده رحمه الله لايزال يُدَرَّس في المدارس الإسلامية، لأن الكتاب وإن كان صغيرَ الحجم، ولكنه أجدى من تفاريق العصا، وأنفعُ من الغيث في أوانه.

ومضى على تصنيفه زمن طويل، والطلاب يقرؤنه برغبة تامة واهتمام بالغ في أرجاء الهند، لأن اللغة الفارسية كانت رائجة في الهند، فلما انقضى عصرها بالهند أحسَّ عالم هندي بحاجة البلاد،فترْجمه إلى اللغة العربية، وأخفى اسمَه، ونسب ذلك الترجمةَ إلى الشيخ محمد منير الدمشقي ، صاحب المطبعة المنيرية الشهيرة بدمشق، ولكن كان في الترجمة هُجْنة وسقط وغموض وتسامح في مواضع عديدة،وكانت الحاجةُ ماسَّةً إلى تهذيب الترجمة .

وقبل ربع قرن خدمت الكتاب بشرحي: العون الكبير ، فأحسستُ حينذاك بالخلل، وشعَرت بحاجة إلى مقابلة الترجمة بالأصل الفارسي، فقمتُ بهذا الواجب حيثما وجدت الغموض في التعبير أو الخلل في العبارة، أو التسامح في أداء الغرض، ونبهت عليه في الشرح، ووضعتُ الترجمة

الصحيحة فى الشرح ولم أغير أصل الكتاب.

ولا يزال العون الكبير يُطبع من سبائك حديدية، حتى ذهب رُوائُها وبهائُها، فأردت طبع الكتاب بالكمبيوتر، فنظرت فى الكتاب مرة أخرى فلم يعجبنى الأسلوب، ووقفت فى أثناء ذلك على أخطاء كثيرة جديدة، فمست الحاجة إلى المراجعة مرة أخرى.

وكذلك القائمون بتدريس الكتاب فى دارالعلوم ديوبند، وكذا فى الدُّوْر الأخرى فى البلاد، أصروا عليَّ مرات وكرات أن أقوم بتهذيب التعريب وتوضيحه، فقمت بواجبى ـــ بتوفيق المليك الوهاب ـــ نحو الكتاب، وأفرغت الجهد فى تحرير الترجمة، وجعلت الترجمة القديمة أصلاً، وغيرت العبارة فى مواضع الضرورة وعلّقت فى مواضع الحاجة بالاختصار، فمن يريد التفصيل فليرجع إلى شرحى العون الكبير وكذا رقّمت الكتاب وَعَنْوَنْتُه من جديد والحمد للّٰه!

وأخيرا اعتذر إلى الأساتذة البارعين الشارحين للكتاب باللغة الأردوية، وألتمس منهم أن يغيروا شروحهم طبقَ هذه الترجمة المهذَّبة، وكذا إلى قرَّاء العربية من خلط الأردو بالعربى فى بعض التعليقات، لأن ذلك لتزويد الناشئين، تقبَّل اللّٰه مساعينا لصالح دينه القويم، والحمد للّٰه رب العالمين.

وكتبه

سعيد أحمد البالن بورى

١٤١٨/٣/١٧هـ

ترجمة الإمام المصنف
فى سطور

هو أبو عبد العزيز قطب الدين ولى الله أحمد بن عبد الرحيم الفاروقى الدّهلَوى، الهندى، وُلد فى عهد عالمگير سنة ١١١٤هـ ، وتوفى إلى رحمة الله فى المحرم سنة ١١٧٦هـ بمدينة دهلى.

كان رحمه الله من عباقرة الهند، وممن يُشار إليهم بالبنان:

العالِم الفاضل النحرير أفضل من بثَّ العلوم فأروى كلَّ ظمآن

أَحْيَا الله به وبأولاده وبتلاميذه، ثم بتلاميذهم ، الحديثَ والسنة بالهند،وعلى كتبه وأسانيده المدارُ فى الديار الهندية؛ فمَثَلُه كمثل شجرةِ طوبى، أصلها فى بيته وفرعها فى كل بيت من بيوت المسلمين.

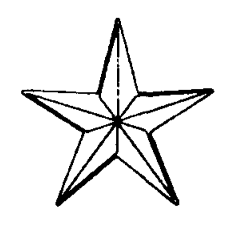
وقد صنف الإمام ولى الله فى العلوم كلها، لاسيما فى الحديث والتفسير وأصولهما، وتصانيفُهُ تشهد بعلو كعبه وتبحره وغزارة علمه وسعة نظره فى العلوم الشرعية عن آخرها، ولنذكر هنا بعضها.

(١) ترجَم الفرقان الحميد إلى اللغة الفارسية على شاكلة النظم العربى فى قدر الكلام، وخصوص اللفظ وعمومه، أسماها بفتح الرحمن (٢) الفوز الكبير فى أصول التفسير بالفارسية وهذا الكتاب تعريبه(٣) المسوى شرح الموطا (بالعربية) (٤) المصفى شرح الموطا (بالفارسية) (٥) الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد (٦)حجة الله البالغة فى أصول الدين وعلم أسرار الشريعة ، وهو كتاب فريد فى بابه، لم يسبقه مثله، ولم يُنْسَجْ على مِنواله بعده

(٧) عِقْد الجِيْد فى أحكام الاجتهاد والتقليد (٨) الانصاف فى بيان سبب الاختلاف (٩) المقدِّمة السَّنِيَّة فى انتصار الفرقة السُّنِّيَّة (١٠) وإزالة الْخَفَاء عن خلافة الخلفاء ، وهو كتاب ماتع عديم النظير فى بابه (١١) قرة العينين فى تفضيل الشيخين(١٢) التفهيمات الإلٰهية؛ وغير ذلك من الكتب المفيدة التى بلغ عددها إلى خمسين كتابًا.

وكان رحمه الله على مذهب أبى حنيفة رحمه الله لا يخرج فى العمل عنه قيد شبر، وأما فى الدرس والتصنيف فكان طلقا حرالبحث ، كما كتب هو بنفسه فى آخر نسخة صحيح البخارى، المحفوظة بمكتبة خدابخش بعظيم آباد (پٹنه)ونصُّه:" كتبه بيده الفقير إلى رحمة الله الكريم الودود ولى الله أحمد بن عبدالرحيم بن وجيه الدين بن معظم بن منصور بن أحمد بن محمود عفا الله عنه وعنهم، وألحقه وإياهم بأسلافهم الصالحين، العمرى نسبا، الدهلوى وطنا، الأشعرى عقيدة، الصوفى طريقة، الحنفى عملاً، والحنفى الشافعى تدريساً، خادم التفسير والحديث والفقه والعربية والكلام ، وله فى كل ذلك تصانيف، والحمد لله أولاً وآخرًا،وظاهرا وباطنا، ذى الجلال والإكرام؛ وكان ذلك يوم الثلاثاء لثالث وعشرين من شوال سنة ١١٥٩هـ"

وكذا لكونه حنفيًّا قرائنُ عديدةٌ مصرَّحة ومستنبطةٌ من كتبه، ليس هذا محل بيانها.



علم التفسير

التفسير لغةً: الإيضاح والتبيين؛ واصطلاحًا : علم يُبْحث فيه عن القرآن المجيد، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية.

فخرج علم القراء ات، فإنه علم يُبْحث فيه عن أحوال القرآن الكريم، من حيث ضبط ألفاظه، وكيفية أدائها؛ وقولُنا: "بقدر الطاقة البشرية" لبيانِ أنه لا يَقْدَح في العلم بالتفسير عدمُ العلم بمعاني المتشابِهات، ولا عدمُ العلم بمراد الله تعالى في الواقع ونفس الأمر.

وموضوعه: كلام الله تعالى من حيث دلالته على مراد الله تعالى.

وغرضه: الاهتداء بهداية الله تعالى، والتمسك بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الأبدية.

وفضائله: كثيرة، منها:

(١) تكفَّل الله تعالى بنفسه ببيان كلامه الشريف، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة ١٩) فالله تعالى هو المفسِّر الأول لكلامه القديم، وكفى به فضيلةً!

(٢) جُعل تفسيرُ القرآن الكريم وظيفةَ النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ﴾ (النحل ٤٤) فبينه صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله، فهو المفسر الثاني لكتاب الله المثاني؛ وكفى به قدوةً!

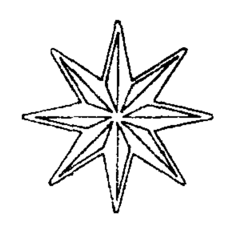
(٣) دعا النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمِّه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فقال: ﴿اللهم عَلِّمْهُ الكِتَاب﴾ (رواه البخاري) وفي رواية: ﴿اللهم

علّمه التأويل ﴾(رواه الحاكم) وشهد بِلَبَاقَتِهِ وَعَبْقَرِيَّتِهِ عبدُ الله بن مسعود رضى الله عنه حيث قال: ﴿نِعْمَ ترجمان القرآن ابْنُ عباس!﴾ (رواه الحاكم) فهل فوق ذلك من فخر!

(٤) وجُعل خيرُ الناس من تعلّم القرآن وعلّمه الناس ، وهذا عام لألفاظ القرآن ومعانيه، بل هو أولى ،ونَاهِيْكَ به من عُلَيَاءَ!

التفسير والتأويل: هما بمعنى واحد عند المتقدمين ، وأما عند المتاخرين، فقال الإمام أبومنصور الماتريدى: **التفسير** : القطع بأن المراد من اللفظ هذا، والشهادةُ على الله أنه عَنىٰ باللفظ هذا؛ فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلا فتفسير بالرأى، وهو المنهى عنه **والتأويل** : ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله (راجع الإتقان النوع ٧٧)

والتفسير بالرأى: هو التفسير بالهوى، والتفسير من عند نفسه، بحيث يوجب تغييرًا لمسألة إجماعية قطعية، أو تبديلاً فى عقيدة السلف المُجْمَع عليها؛ وأما التفسير بالدليل والقرينة فهوتفسير صحيح معتبر فى الشرع؛ ومن يطالع كتب التفسير يجدها مشحونة بمثل هذه التفاسير، فلا ضير فيها.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

آلاءُ [1] الله تعالى على هذا العبد الضعيف لاتُعَدُّ ولاتُحْصَى؛ وأجلُّها: التوفيق لفهم القرآن العظيم. ومِنَنُ [2] صاحب النبوة والرسالة ــــ عليه الصلاة والسلام ــــ على أحقر الأُمَّة كثيرة؛ وأعظمُها: تبليغُه صلى الله عليه وسلم الفرقانَ الكريم؛ لقَّن [3] النبى صلى الله عليه وسلم القرآن الجيلَ الأول [4] وهم أبلغوه للجيل الثانى [5] وهلُمَّ جَرًّا [6]، حتى بلغ هذا الضعيفَ أيضًا حظٌّ من روايته ودرايته.

اللهم صلِّ على هذا النبى الكريم: سيِّدنا ومولاناوشفيعنا ، أفضلَ صلواتك، وأيمن بركاتك وعلى آله وأصحابه، وعلماء أمته أجمعين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد: فيقول الفقير ولى الله بن عبد الرحيم ــــ عاملَهما الله تعالى بلطفه العظيم ــــ: لما فتح الله تعالى عليَّ بابا من فهم كتابه المجيد، خطر ببالى أن أجمع وأُقيِّد بعضَ النكاتِ [7] النافعة التى تنفع الأصحابَ فى رسالة مختصرة؛ والمرجُوُّ من لُطف الله ــــ الذى لاانتهاء له ــــ أن يفتح لطلبة العلم ــــ بمجرد فهم هذه القواعد ــــ شارعاً واسعًا فى فهم معانى كتاب الله، بحيث لو صرفوا عُمُرَهم فى مطالعة التفاسير، والقراءةِ على

---

(١) جمع الإلي، والإلى، والألى . النعمة (٢) جمع المِنة : الإحسان (٣) لقَّنه الكلامَ: فهَّمه إياه مشافهة (٤) الجِيل الأول : هم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (٥) الجيل الثانى : هم جماعة التابعين.(٦) هلم جراً: تعبير يقال لاستدامة الأمر واتصاله . (٧)جمع النكتة، وهى المسالة العلمية اللطيفة، التى أخرجت بدقة نظر، وإمعان فكر ، والمراد بها هُنا: الفوائد النافعة.

المفسرين ـــــ على أنهم أقلُّ قليلٍ في هذا الزمان ـــــ لم تَتَحَصَّلْ لهم هذه الفوائد بهذا الضبط والربط. وسمَّيْتها بـ ﴿الفوز الكبير في أصول التفسير﴾ وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ، وهوحسبي،ونِعْمَ الْوكِيْل.

ومقاصد هذه الرسالة منحصِرة في خمسة أبواب:

الباب الأول: في بيان العلوم الخمسة، التي يدلُّ عليها القرآن العظيمُ نصًا وكأنَّ نزولَ القرآن بالإصالة كان لهذا الغرض.

الباب الثاني: في بيان وجوه الْخَفَاء في معاني نظم القرآن،بالنسبة إلى أهل هذا العصر، وإزالةِ ذلك الخفاء بأوضح بيان.

الباب الثالث: في بيان لطائف نظم القرآن،وشرحِ أسلوبه البديع، بقدر الطاقة والإمكان.

الباب الرابع: في بيان مناهج التفسير، وتوضيح الاختلاف الواقع في تفاسير الصحابة والتابعين.

الباب الخامس: في ذكرجُمْلةٍ صالحةٍ[1]من شرح غريب القرآن، وأسباب النزول التي يجب حفظُها على المفسر، ويمتنع ويَحْرُمُ الخوض في كتاب الله بدونها[2]

الباب الأول

في

بيان العلوم الخمسة التي يدل عليها القرآن العظيم نصًّا

لِيُعلم أن معاني القرآن المنصوصةَ لاتخرج عن خمسة علوم:

١ـ علم الأحكام: وهي الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام؛

---

(١) أي مقداراً كافيا (٢) أسقط الناشرون للفوز الكبير البابَ الخامس منه لعدم شموله في الدرس.

سواء كانت من قسم العبادات، أو من قسم المعاملات،[١] أو من تدبير المنزل[٢] أو من السياسة المدَنيَّة؛[٣] وتفصيل هذا العلم منوط[٤] بذمة الفقيه.

٢- **علم الجدل**: وهو المحاجَّة مع الفِرَق الأربع الضالَّة: من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين؛ وتبيان هذا العلم منوط بذمة المتكلم.

٣- **علم التذكير[٥] بآلآء الله**: وهو بيان خلق السماوات والأرض وإلهام العباد مايحتاجون إليه، وبيانُ صفات الله الكاملة.

٤- **علم التذكير بأيام الله[٦]**: وهو بيان الوقائع التى أحْدَثها الله سبحانه وتعالى من قبيل تنعيم المطيعين، وتعذيب المجرمين.

٥- **علم التذكيربالموت وما بعدَه**: من الحشر والنشر والحساب والميزان والجنة والنار.

وتفصيل هذه العلوم الثلاثةِ، وذكرُ الأحاديث والآثار المتعلقة بها يرجع إلى الواعظ والمذكّر.

أسلوب القرآن الكريم فى عرض العلوم الخمسة

وإنما وقع بيان هذه العلوم على أسلوب العرب الأولين، لاعلى منهاج

---

(١) **المعاملات**: مسائل باحثةعن كيفية إقامة المعادلات، والمعاونات، والاكتسابات فيما بين الناس (فن معاملات: وہ علم ہے جس میں ترقی یافتہ تمدن یعنی شہری زندگی میں تبادلۂ اشیاء تعاون باہمی اورذرائع معاش کووجود میں لانے کی صورتوں سے بحث کی جاتی ہے) (٢) **علم تدبير المنزل**: حكمة باحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المنزل (فن تدبیر منزل: وہ علم ہے جو ترقی یافتہ تمدن میں خاندانی تعلقات کی نگہداشت سے بحث کرتا ہے) (٣) علم سياسة المدينة: حكمة باحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة (سیاست المدینہ یعنی انتظام مملکت، یہ وہ فن ہے جس میں کسی ایک شہر یا ایک ملک کے لوگوں کے درمیان ربط وتعلق کو محفوظ رکھنے کے طریقوں سے بحث کی جاتی ہے) والمراد من المدينة: جماعة متقاربة تجرى بينهم المعاملات ويكونون أهل منازل شتّى. (٤) المنوط: المعلّق؛ يقال: هذا منوطٌ به أى معلّق به (٥) ذكّره الشيءَ وبالشيء: جعله يذكُرُه، وذكّر القوم: وعظهم (٦) أيام الله: نِعَمُهُ ونِقَمُهُ كقصص الأنبياء وأقوامهم، وأيام العرب: حروبهم وملاحمهم، كيوم ذى قار، ويوم الفُجار.

العلماء المتأخرين، فلم يلتزم سبحانه وتعالى فى آيات الأحكام اختصارًا يختاره أهل المتون، ولا تنقيحَ القواعد من قيود غيرضرورية، كما هو صَناعة الأصوليين؛ واختارسبحانه وتعالى فى آيات المخاصمة إلزامَ الخصم بالمشهورات المسلّمة [1] والخَطابيات النافعة [2] لا تنقيحَ البراهين [3] على طريقة المنطقيين؛ ولم يُراع سبحانه وتعالى المناسبةَ فى الانتقال من موضوع إلى موضوع، كما يراعيها الأدباء المتأخرون؛ بل نشر كلَّ ما أهمَّ [4] إلقاؤه على العباد، سواء كان مقدما أو مؤخرًا

لايحتاج كل آية إلى سبب النزول

وقد ربط عامة المفسرين كلَّ آية من آيات الجدل والأحكام بقصة، ويظنون أن تلك القصة هى سبب نزولها.

والحق: أن القصد الأصلى من نزول القرآن هو تهذيب النفوس البشرية، ودمغُ العقائد الباطلة، ونفى الأعمال الفاسدة؛ فوجود العقائد الباطلة فى خواطر المكلّفين سبب لنزول آيات الجدل؛ ووجودُ الأعمال الفاسدة، وشيوع المظالم فيما بينهم سبب لنزول آيات الأحكام؛ وعدمُ تيقُّظهم وتَنَبُّههم بغير ذكر آلآء الله، وأيام الله،ووقائع الموت وما بعدَه سبب لنزول آيات التذكير .

وأما الأسباب الخاصة والقصص الجزئية التى تَجَشَّم المفسرون بيانها فليس لها مدخلٌ فى ذلك ، يُعْتَدُّ به، إلافى بعض الآيات الكريمة، حيث وقعت الإشارة فيها إلى حادثة من الحوادث التى وقعت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ،أو قبلَه ؛ ولايزول ما يَعْرِض للسامع من الترقُّب والانتظار، عند سماع

(١)أى المسلمة عند عوامهم وخواصهم (٢) الخطابة: قياس مؤلّف من المظنونات أو المقبولات والخطابة بفتح الخاء مصدر.(٣)البرهان: قياس مؤلف من اليقينيات سواء كانت بديهيات أو نظريات، منتهية إلى البديهيات (٤) أهمَّ الأمرفلانا: أثار اهتمامَه.

ذلك التعريض إلا ببسط القصة؛ فلزم أن نشرَح هذه العلوم بوجهٍ لانحتاج إلى إيراد القصص الجزئية[1]

الفصل الأول

فى
علم الجدل[2]

قد وقعت المخاصمة فى القرآن العظيم مع الفِرَقِ الأربع الضالَّة: المشركينَ واليهودِ والنصارى والمنافقين ؛ وهذه المخاصمة على طريقين:

الأول: أن يذكر سبحانه وتعالى العقيدةَ الباطلة، مع التنصيص على شَناعتها، ويذكر استنكارَها فحَسْب.

والثانى: أن يُبَيِّنَ شُبُهاتِهم الواهيةَ ويَذكرحلَّها بالأدلة البرهانية أو الخَطابية.

ذكرالمشركين

وقدكان المشركون يُسَمُّوْن أنفسهم حُنَفَاءَ[3]ويدَّعون التديُّن بملة سيدنا إبراهيم عليه السلام ؛وإنما يقال"الحنيف"لمن تديَّن بالملة الإبراهيمية، والتزم شِعارها.

---

(١)ذكر الإمام المصنف فى الفصل الأول علمَ الجدل مع الفرق الأربع الضالة وفى الفصل الثانى بقية العلوم الخمسة ، فبدأ بعلوم التذكير الثلاثة، ثم ثنَّى بمباحث الأحكام؛ ففى الكلام لف ونشر مشوَّش ، فتنبه له.(٢)يقال لعلم الجدل:علم المناظرة والمخاصمة أيضًا ؛ والمراد به هنا: أن النفوس السُّفْلية إذا تولَّدت بينها شُبُهات تُدافع بها الحقَ ، فكيف تُحَلُّ تلك العُقد؟(٣)الحنفاء جمع حنيف على زِنَةِ فعيل: المائل عن الأديان كلها إلى الدين القويم؛ من الحنف وهو الميل ؛ وفى الاصطلاح : كل من كان على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام فهو حنيف .

شعائر الملّة الإبراهيمية

وشعائرها: حِجُّ البيت الحرام، واستقباله في الصلوات،والغُسل من الجنابة، والاختتان ،وسائرخِصال الفطرة [1] وتحريم الأشهر الحرم، وتعظيم المسجد الحرام، وتحريم المحرمات النسبية والرَّضاعية، والذَّبح في الحَلقِ، والنَّحر في اللَّبَّة، والتقرب بالذبح والنحر إلى الله تعالى، لاسيما في أيام الحج.

شرائعها

وقدكان الوضوء والصلاة، والصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس،والصدقة على اليتامى والمساكين، والإعانةُ على نوائب الحق، وصلة الأرحام مشروعةً في أصل الملة، وكان التمدُّح بهذه الأعمال شائعا فيما بينهم ، إلا أن جُمهور المشركين قد تركوها، حتى صارت هذه الأعمال في حياتهم العملية كأن لم تكن شيئًا.

وقد كان تحريم القتل والسرِقة والزنا والربا والغصب أيضًا ثابتا في أصل الملة؛ وكان استنكار هذه الأفعال باقيا عندهم في الجملة؛ ولكنَّ جهمورَ المشركين كانوا يرتكبونها، ويتَّبعون النفس الأمَّارة فيها.

عقائدها

وقد كانت عقيدة إثبات الصانع سبحانه وتعالى، وأنه هو خالق الأرض والسماوات العُلى، وأنه مدبِّر الحوادث العظام ، وأنه قادرعلى إرسال الرسل وجزاءِ العباد بما يعملون، وأنه مقدِّر للحوادث العظيمة قبل وقوعها، وأن الملائكة عباده المقرَّبون، وأنهم يستحقوق التعظيم، كلُّ ذلك كان ثابتًا

---

(١)خصال الفطرة: هى قصُّ الشارب، وإعفاء اللِّحيَة، والسِّواك، واستنشاق الماء، وقصُّ الأظفار، وغسل البراجِم ، ونَتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء يعنى الاستنجاء قال الراوى: ونسيتُ العاشرة إلا أن تكون المضمضةَ (رواه مسلم مشكوة رقم الحديث ٣٧٩) وفى رواية: الخِتَان بدل إعفاء اللحية (رواه أبو داود عن عمار بن ياسر رضى الله عنه)

عندهم، ويدل على ذلك أشعارهم ؛ ولكنَّ جمهور المشركين قد وقعوا فى شبهات كثيرة تُجَاهَ هذه المعتقَدات لاستبعادها، وعدم ألفتهم بإدراكها.

ضلال المشركين

وكان من ضلالهم: الشركُ، والتشبيه، والتحريف ، وجحود الآخرة، واستبعاد رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وشيوعُ الأعمال القبيحة والمظالمِ فيما بينهم، وابتداع التقاليد الباطلة، واندراس العبادات.

بيان الشرك

والشرك: أن يُثبِت لغير الله تعالىٰ شيئًا من الصفات المختصة به تعالى، كالتصرف فى العالَم بالإرادة - الذى يعبر عنه بـ ﴿كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ - أو العلم الذاتى -غيرالمُكتسب بالحواس ودليلِ العقل والمنام والإلهام ونحو ذلك- أوالإيجادِ لشفاء المريضِ ، أو اللَّعْنِ على شخص ، والسخطِ عليه حتى يُقْدر عنيه الزرقُ ، أو يَمْرض ، أو يشقى بسبب ذلك السخط، أو الرحمةِ لشخص حتى يُبْسَطَ له الزرقُ، ويَصِحَّ بدنه،ويَسْعدَ بسبب هذه الرحمة[1].

ولم يكن هؤلاء المشركون يشركون أحداً فى خلق الجواهر،[2] وتدبير الأمور العظام، ولايُثبتون لأحد قدرةَ الممانعة[3] إذا أبرم[4] الله تعالى أمرًا؛ وإنما كان إشراكهم فى أمور خاصة ببعض العباد، ويظنون أن سلطانا عظيما من السلاطين كما يرسل عبيده المخصوصين إلى نواحى مملكته، ويجعلهم مختارين متصرفين فى أمور جزئية، إلى أن يصدر عنه حكم صريح فى أمر خاص، ولايقوم بشئون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه، بل يَكِلُ الرعيةَ إلى الولاة والحكام، ويقبل شفاعتهم فى حق الذين يخدمونهم، ويتوسلون بهم؛

(١) والحاصل : أن الصفات المذكورة من التصرف فى الكون، والعلم الذاتى ، وإيجاد الشفاء، واللعن والسخط والرحمة كُلُّها مختصة بالله تعالى، فمن أثبت شيئا منها لغيره تعالى فقد أشرك(٢) جمع الجوهر ، وهو ماقام بنفسه، ويقابله العرض، والمراد: المكوَّنات المادية (٣) الممانعة: المنازعة (٤) أبرم الأمر: أحكَمَه.

كذلك قد خلع الملِك على الإطلاق[1] على بعض عباده خِلعةَ الألوهية ،وجعل سخطهم ورضاهم مؤثرًا في عباده الآخرين.فيرون التزلُّف[2] إلى أولئك العباد المقربين واجبًا ليتيسرلهم حسن القبول في حضرة الملك المطلق ، وتُقبل شفاعتهم للمتقرِّبين بهم في مجارى الأمور[3]

وكانوا يجوِّزون نظرًا إلى هذه الأمور: أن يُسجدلهم ، ويُذبح لهم، ويُحْلف بهم، ويستعان بقدرتهم المطلقة فى الأمور المهمة. ونحتوا صُوَرًا كصورهم من الحجر والصُّفر وجعلوها قبلة للتوجه إلى تلك الأرواح؛ حتى اعتقد الجهال شيئا فشيئًا تلك الصُّورَ معبودةً بذواتها؛ فتَطَرَّق[4] الفساد العظيم إلى المعتقدات.

بيان لتشبيه

والتشبيه: عبارة عن إثبات الصفات البشرية لله تبارك وتعالى، فكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله ، وإنه تعالى يقبل شفاعة عباده، وإن لم يرضَ بها،كما يفعل الملوك أحيانا مثل ذلك مع الأمراء الكبار؛ ولما لم يستطيعوا إدراكَ علمِه تعالى وسمعه وبصره،كما يليق بشأن الألوهية، قاسوها على علمهم وسمعهم وبصرهم، فوقعوا فى عقيدة التجسيم[5]، ونسبوا التحيز إلى الله تعالى شأنه.

بيان التحريف

وأما التحريف فإن قصته: أن أولاد سيدنا إسماعيل عليه السلام كانوا على شريعة جدِّهم الكريم: سيدِنا إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام،حتى جاء عصرعمرو بن لُحَيّ[6] ـــ لعنه الله ـــ فوضع لهم الأصنامَ، وشرع لهم

(١) قوله: على الإطلاق أى الكامل فى التصرف، يفعل ما يشآء؛ من أطلق له التصرفَ: أباحه(٢) التزلف : التقرُّب (٣) مجارى الأمور:هى مادون الأمور العظام (٤) تطرق إليه: ابتغى إليه طريقًا(٥) التجسيم: عقيدة أن الله تعالى له جسم كأجسامنا. والتحيز : عقيدة أن الله تعالى متمكن فى مكان.(٦) عمروبن لُحَيّ: من قحطان، كنيته أبو ثمامة، وفى نسبه اختلاف شديد ، ويُظَن أنه كان فى أوائل القرن الثالث من الميلاد

عبادتَها،واخترع لهم تحريرَ البحائر والسوائب والحَامِى،والاستقسامَ بالأزلام، وأمثالَ هذه الطُقوس.[١] وقدكان هذا الحادث[٢] قبل بعثة النبى صلى اللّٰه عليه وسلم بقُرابةِ ثلاثِ مائةِ سنةٍ ،وكانوا يتمسكون فى هذا الباب [٣] بآثارآبائهم، ويرونها من الحجج القاطعة.

جحود الآخرة

وقد بين الأنبياء السالفون الحشر والنشر؛ولكن لم يكن ذلك البيان بشرح وبسط مثلَ ما تَضَمَّنه القرآن العظيم، ولذلك كان جمهور المشركين قليلى الاطلاع عليه ،وكانوا يستبعدون وقوعه.

استبعاد رسالة النبى صلى اللّٰه عليه وسلم

وهؤلاءالجماعة وإن كانوا معترفين بنبوة سيدناإبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهماالسلام؛بل بنبوة سيدنا موسى عليه السلام أيضًا[٤] ولكن كانت الصفات البشرية ـــــ التى هى حجاب لجمال الأنبياء الكامل[٥]ـــــ تشوِّشُهم تشويشًا[٦]؛ وكذلك لمّا لم يعرفوا حقيقة تدبير اللّٰه الذى هو مقتضِى بعثة الأنبياء، اسْتَبْعَدُوا الرسالةَ، لاعتقادهم أن الرسول ينبغى أن يكون مثل المرسِل، فكانوا يوردون لأجل ذلك شبهاتٍ واهيةً، غير مسموعةٍ، فيقولون مثلاً: كيف يكون النبى محتاجًا إلى الطعام والشراب؟ ولما ذا لم يرسل اللّٰه مَلَكا رسولاً؟ ولماذا لايُوحى إلى كل أحد على حدة؟ وعلى هذا الأسلوب .

نَموذَج المشركين

وإن كنت غيرَ مُهتدٍ فى تصوير[٧] حال المشركين وعقائدهم وأعمالهم،

(١) الطقوس جمع الطَقْس : وهى المراسيم الدينية.(٢) يعنى وقعة عمرو بن لحى. (٣) يعنى فى جواز عبادة الأصنام (٤) أى مع كونه عليه السلام من غير آبائهم(٥) اى تحول تلك الصفات بين الأنبياء وبين جمالهم الحقيقى، وتَحْجُبُهُمْ ، فلايدركون ذاك الجمال الكامل لجهلهم (٦)شوَّش الأمر: صَيَّره مضطربًا،(٧) صوَّرالأمر: وصفه وصفاً يكشف حاله كشفاً بينا.

فانظر إلى حال المحترفين[1] من أهل عصرنا، لاسيما الذين يقطُنون منهم بأطراف دارالإسلام[2] ماهى تصوراتهم عن "الولاية"؟ فمع أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين، يرون وجود الأولياء فى هذا العصر من قبيل المستحيلات، ويذهبون إلى القبور والعتبات، ويرتكبون أنواعًا من الشرك[3]؛ وكيف تَطَرَّق إليهم التشبيهُ والتحريف؟ ونرى طَبْقَ الحديث الصحيح: "لتتَّبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم"[4] أنه ما من بلية من البلايا إلا وطائفة من أهل عصرنا يرتكبونها، ويعتقدون مثلها، عافانا الله سبحانه وتعالى من ذلك.

وبالجملة: فإن الله تعالى بعث سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم ــــ بفضله ورحمته ــــ فى العرب، وأمره بإقامة الملة الحنيفية، وخاصمهم[5] فى القرآن العظيم، واستدل فى المخاصمة بمسلَّماتهم التى هى من بقايا الملَّة الحنيفية، ليتحقق الإلزام.

فردُّ الإشراك

أولا: بمطالبتهم بالدليل على ما يزعمون، ونقضِ تمسكهم بتقليد آبائهم.

وثانيا: بإثبات عدم التساوى بين هؤلاء العباد وبين الرَّب تبارك وتعالى؛ وبيان اختصاصه تعالى باستحقاق أقصى غاية التعظيم، بخلاف هؤلاء العباد.

وثالثًا: ببيان إجماع الأنبياء على هذه المسئلة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُوْلٍ إلاَّ نُوْحِىْ إِلَيْهِ: أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إلاَّ أَنَا، فَاعْبُدُوْنِ﴾[6]

ورابعًا: ببيان شناعة عبادة الأصنام، وأن الأحجار ساقطة عن مرتبة الكمال الإنسانى، فكيف ينالون مرتبة الألوهية؟ ــــــ وهذا الردُّ مسوق لقوم

---

(١) احترف: اتَّخذ حِرْفة فهو مُحْتَرِف (پیشہ کرنے والا) (٢) أى لِمَا أنهم يسكنون بنواحى دارالاسلام وأرجائها يكونون جاهلين من الدين (٣) أى هم لايستفيدون من الأولياء الأحياء، بل يذهبون إلى الأموات، ويرتكبون هناك البدع والخرافات. (٤) رواه الشيخان واللفظ لأحمد والبيهقى. (٥) أى جادلهم ونازعهم (٦) سورة الأنبياء ٢٥.

يعتقدون الأصنامَ معبودةً لذواتها[1]

وردُّ التشبيه

أولا: بمطالبتهم بالدليل على دعواهم، ونقض تمسكهم بتقليد آبائهم.

وثانيا: ببيان ضرورة التجانس بين الوالد والولد؛وهو مفقود بالبداهة.

وثالثًا: ببيانِ شناعةِ نسبةِ ما هو مكروه ومذموم لديهم إلى الله تعالى ، كما قال تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُوْنَ؟﴾[2]ـــــ وهذا الردُّ مسوق لقوم اعتادوا المقدماتِ المشهورة، والمتوهَّمات الشِّعْرِيَّة[3]؛ وكان أكثرهم من هذا القبيل.

وردُّ التحريف

أولا: ببيان أنه لم يُؤْثَرْ عن أئمة الملة الحنيفية.

وثانيًا ببيانِ أن ذلك كلَّه اختراعات وابتداعات ممن ليسوا بمعصومين.

وردُّ استبعاد الحشر والنشر

أولاً: بالقياسِ على إحياء الأرض بعد موتها، وما أشبه ذلك[4]وتنقيح المناط الذى هو شمول القدرة، وإمكان الإعادة[5].

وثانيا: ببيان موافقة أهل الكتب السماوية كلِّهم فى الإخبار به[6]

---

(١) وأما الذين يظنون الأصنام وسيلة التقرُّب، وقبلة التوجُّه فلا يَكْبِتُهُمْ هذا الجواب

(٢) سورة الصَّافَّات ١٤٩ (٣)المتوهمات: قضايا كاذبة يحكم بها الوهم فى امور غير محسوسة ـــــ والشعر: قول مؤلَّف من المخَيَّلات ـــــ والمخيلات: قضايايُخَيَّل بها، لتتأثر النفسُ بها قبضًا وبسطًا، فترغب فيها، سواء كانت صادقة أو كاذبة، كقول القائل: الخَمْر ياقوتة سيَّالة فحينئذ تنبسط النفس وترغب فيها؛ والعسلُ مُرَّة مُهَوَّعَة ، فالنفس تنقبض وتتنفر عنه(٤)كقياس الإعادة على الابتداء (٥) أى نقول: إن الإعادة موقوف على امرين: الأول: كون الإعادة ممكنا، والثانى : كون قدرة الله تعالى شاملاً عليه، وثبت كلا الأمرين ،فأىُّ استحالة فيه؟(٦)اى نقول: إن الكتب السماوية كلَّها متفقة فى الإخبار بوقوع الحشر والنشر، فكان ذلك إجماعًا قاطعًا عليه

والردُّ على منكري الرسالة

أولاً: ببيان وجودها في الأنبياء السابقين، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَيَقُوْلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا: لَسْتَ مُرْسَلاً، قُلْ: كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيْدًا بَيْنِيْ وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهٗ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[2]

وثانيًا: بدفع الاستبعاد ببيان أن الرسالة هنا عبارة عن الوحي، قال تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوْحىٰ إِلَيَّ﴾[3] ثم يُفسِّر الوحي بما لايكون من المستحيلات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاَّ وَحْيًا، أَوْمِنْ وَّرَآئِ حِجَابٍ، أَوْيُرْسِلَ رَسُوْلاً فَيُوْحِيَ بِإِذْنِهٖ مَايَشَآءُ، إِنَّهٗ عَلِيٌّ حَكِيْمٌ﴾[4]

وثالثًا: ببيان أن عدم ظهور المعجزات التي يقترحونها[5] وعدمَ موافقة الله تعالى إياهم في تعيين شخص يتوخون[6] رسالته وعدمَ إرساله تعالى الملائكة رسلا، وعدم إيحائه تعالى إلى كل شخص، كُلُّ ذلك لمصلحة كلية، يقصر علمهم عن أدراكها.

ولما كان أكثرالناس الذين بعث الله إليهم الرسولَ صلى الله عليه وسلم مشركين، ذكرهذه المعاني في القرآن الكريم في سُوَر كثيرة بأساليب متعددة وتأكيدات بليغة؛ ولم يتحاش[7] عن تكرارها وتَردادها؛ نعم هكذا ينبغي أن تكون مخاطبة الحكيم المطلق مع هؤلاء الجهلة؛ والكلام في مقابلة هؤلاء السفهاء جدير بهذا التأكيد البليغ، ﴿ذٰلِكَ تَقْدِيْرُ الْعَزِيْزِ الْعَلِيْمِ﴾

ذكر اليهود

وقد كان اليهود، آمنوا بالتوراة، وكان من صلالهم:

١ ــ تحريفُ أحكام التوراة، سواء كان تحريفاً لفظيا أو تحريفًا معنويا.

---

(١) سورة يوسف ١٠٩ (٢) سورة الرعد ٤٣ (٣) سورة حٰمٓ السجدة ٦ (٤) سورة الشورى ٥١ (٥) اقترح عليه كذا وبكذا: تحكّم وساله إياه بالعنف، ومن غير روية (سختی سے بے سوچے سمجھے سوال کرنا، مطالبہ کرنا) (٦) تَوَخيَّ الأمرَ: قصد إليه، وتعمَّد فِعله، وتحرَّاه يقال: توخى رضاه وتوخى محبته (٧) تَحَاشيَ عن كذا: تنزَّهَ.

٢ ـ وكتمانُ آيات التوراة.

٣ ـ وإلحاقُ ماليس منها بها، افتراءً منهم.

٤ ـ والتقصيرُ في تنفيذ أحكامها.

٥ ـ والعصبيةُ الشديدةُ لديانتهم.

٦ـ واستنكارُ رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، وسوءُ الادب والطعن عليه صلى الله عليه وسلم، بل بالنسبة إلى الربِّ تبارك وتعالى أيْضًا.

٧ـ وابتلاؤهم بالبخل والحرص ونحو ذلك من الرذائل.

بيان التحريف

وقد تحقق لدى الفقير أن تحريفهم اللفظيَّ[1]قد كان في ترجمة التوراة وأمثالها، لافي أصل التوراة؛وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

والتحريف المعنوي: هوتأويل فاسد بحمل الآية على غيرمعناها، بتعسُّف وانحراف عن سواء السبيل.

أمثلة التحريف المعنوي:

١ـ فمن جملة ذلك: أن الله تعالى قد بَيَّنَ الفرقَ بين المتديِّنِ الفاسق والكافرالجاحد في كل ملَّة،وتوعَّدالكافر بالخلود في النار والعذاب الأليم، وجوَّز خروجَ الفاسق من النار بشفاعة الأنبياء ، وصرَّح بذلك في كل ديانة باسم المتدين بتلك الديانة، فأثبت ذلك في التوراة لليهود والعبريين[2]وفي الإنجيل للنصرانيين، وفي القرآن العظيم للمسلمين؛ ومناطُ الحكم: هو الإيمان

(١)اعلم أن في التحريف ثلاثةَ مذاهبَ: ذهب جماعة إلى إنكار التحريف اللفظي رأسا، فالتحريف عندهم كله معنوي، وإليه جنح الإمام المصنف رحمه الله تعالى ؛ وذهب جماعة إلى أن التحريف اللفظي موجود فيها، ولكنه قليل؛ وقال جماهير العلماء : إن التحريف قد وقع في الكتب السماوية بكل نحو من اللفظي والمعنوي كثيرًا. (٢)يقال لليهودي: العبْري والعبْرانيُّ، تسميةً لهم باسم لغتهم ؛ وهم يسمون أنفسهم بالإسرائيلي، نسبة إلى إسرائيل أي يعقوب عليه السلام.

بالله واليوم الآخر، والإيمانُ بالنبى الذى بُعث إليهم، والانقيادُ له، والعمل بشرائع ملته، والاجتناب عن نواهيها؛ لاتخصيص الحكم بفرقة من الفرق لذاتها.

ولكن اليهود زعموا أن كل من كان يهوديا أو عبريا فهو من أهل الجنة، وتُخَلّصه شفاعة الأنبياء من العذاب، ولا يمكث في النار إلا إياماً معدودات، وإن لم يتحقق ذلك المناط، ولم يكن إيمانه بالله تعالى على الوجه الصحيح، ولم يدرك حظًا من الإيمان بالآخرة، ورسالةِ النبى المبعوث إليهم.

وهذاخطأ صرف وجهل محض، وقد كشف القرآن العظيم هذه الشبهة على أتم وجه، لِمَا أنه كان مُهَيْمِنًا[1] على الكتب السابقة، مُبيِّنًا لمواضع الإشكال فيها، فقال تعالى: ﴿بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً، وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْئَتُهُ، فَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِهُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾[2]

٢ ـ ومن جملة ذلك: أنه تعالى قد بَيَّن فى كل ملّة أحكامًا تُناسب مصالحَ ذلك العصر. وروعيت فى التشريع[3] عاداتُ القوم الصالحةُ، وأكّد الأمرَ بالأخذبها، وإدامةِ العمل عليها، والاعتقادِ بها، وحَصْرِ الحَقِّيَّة فيها؛ والمراد أن الحق منحصر فيها فى ذلك العصر، وأن الإدامة عليها[4] إضافية، لاحقيقية أى مالم يأت نبى آخر، ومالم يُكشف السّتار عن وجه رسالته.

ولكن اليهود حملوا ذلك على استحالة نسخ اليهودية؛ وكان معنى[5] وصية التمسك بهاهو الوصاية بالإيمان بالله والتمسك بالأعمال، ولم تكن خصوصيةُ تلك الملة معتبرةً لذاتها؛ ولكن اليهود اعتبروا الخصوصية، فظنوا أن يعقوب عليه السلام وصّى بنيه بالتمسك باليهودية أبدًا.

---

(١) هَيْمَنَ على كذا: سَيْطر عليه، ورَاقَبه وحفظه (نگہبان ہونا)(٢) سورة البقرة ٨١
(٣) التشريع: سَنُّ القوانين(٤) ضمائر التأنيث كلها ترجع إلى الملة(٥) هذا جواب سؤال مطوى، وهو أن اليهود يدعون أن يعقوب عليه السلام يوم مات وصّى بنيه بالتمسك باليهودية، فيستدلون بتلك الوصية على استحالة نسخ اليهودية، والجواب: أن ذلك افتراء منهم على يعقوب عليه السلام، ولم يكن معنى وصيته هذا، بل كان معناه الخ.

٣ - ومن جملة ذلك: أن الله تعالى شرّف الأنبياء، والتابعين لهم بإحسان، في كل ملّة بوصف المقرَّب والمحبوب، ووصف الذين ينكرون الملة بالمغضوب؛ وأطلق في هذا الباب لفظاً شائعا في كل قوم، فلا عجب لو استعمل كلمة "الأبناء" مقام المحبوبين؛ ولكنْ ظن اليهودُ أن هذا التشريف دائر مع اسم اليهودى والعِبْرى والإسرائيلى، ولم يعرفوا أنه دائرمع صفة الإنقياد والخضوع، والسير على الحق الذى أنزله الله على الأنبياء لاغير.

وقد ارتكز[1] فى خواطرهم كثير من التأويلات الفاسدة من هذا القبيل، وتلقّوها وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم؛ فَدَحَضَ[2] القرآن الكريم هذه الشبهاتِ على أتم وجه.

بيان كتمان الآيات

أما كتمان الآيات: فهو أنهم كانوا يُخفون بعض الأحكام والآيات للمحافظة على جاهٍ شريفٍ، أو لطلب منصب عزيز، لئلا يتلاشى إعتقادُ العامّة فيهم، ولايُلاموا على ترك العمل بتلك الآيات.

أمثلته

١ - فمن جملة ذلك: أن حكمَ رجم الزانى مصرَّحٌ فى التوراة، ولكنهم أهملوه لإجماع أحبارهم[3] على إهماله، وإقامةِ الجَلْد وتسخيم[4] الوجه مقامه، وكانوا يخفون تلك الآياتِ خشيةَ الفضيحة.

٢ - ومن جملة ذلك: أن الآيات[5] التى فيها بشارة ببعثة نبى فى أولاد هاجر[6] وإسماعيل عليهما السلام، والتى فيهاإشارة إلى وجود ملّة، يتم ظهورها وشهرتها فى أرض الحجاز وتمتلئ بها جبال عرفة من التلبية، ويوم

(١) ارتكزالشيءُ: ثبت واستقر فى محله (٢) دَحَضَ الحجّة: أبطلها ودفعها (٣) الأحبار جمعُ حِبْر ـــ بفتح أوله، وبكسره ـــ: العالم الكبير عند النصارى، ورئيس الكَهَنَة عند اليهود (٤) سخّم الله وجهه: سوّده، والسخم: السواد (٥) يعنى آيات التوراة (٦) هاجر على زنة فاعل: أم إسماعيل عليهما السلام، ويقولون: آجِرُ، فيبدلون الهمزة من الهاء.

الناس ذلك الموضِع من الأقطار والأمصار؛ وهي ثابتة في التوراة حتى اليوم؛ فكان اليهود يتأولونها بأن ذلك إخبار بوجود تلك الملة، وليس فيها أمر باتباعها؛ وكانوا يرددون هذه الكلمة: "مَلْحَمَةٌ كُتبتْ علينا"[1]

ولِمَا أن هذا التأويل الركيك لايسمعه أحد، ولايصح عند أحد، كانوا يتواصَون فيما بينهم بإخفائها، ولايسامحون بإظهارها على كل عام وخاص، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ أَتُحَدِّثُوْنَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ ، لِيُحَاجُّوْكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾[2].

ماأجهلهم! هل يمكن أن تُحمَل مِنَّةُ الله تعالى على هاجرو إسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ بهذه المبالغة، وذكرُ هذه الأمة بهذه الفضيلة، على الإخبار بوجود تلك الملة، ولايكون فيه حث وتحريض على اتباع هذا الدين؟! سُبْحَانَكَ هٰذَا إِفْكٌ عَظِيْمٌ!

بيان الافتراء:

أما الافتراء[3] فأسبابه:

١ـ دخول التعمُّق والتشدُّد على أحبارهم ورهبانهم.

٢ـ والاستحسان أي استنباط بعض الأحكام بناءً على إدراك المصالح فيها، بدون نص من الشارع.

٣ ـ وترويج الاستنباطات الواهية.

فأتباعهم ألحقوها بالأصل[4] زعما منهم أن اتفاق سلَفهم على شئ من الحجج القاطعة؛ فلم يكن عندهم مستَنَد في إنكارنبوة عيسى عليه السلام إلاأقوال سلفهم؛ وكذلك كان حالهم في كثير من الأحكام.

---

(١) أي كانوا يقولون: كُتب علينا الحرب الشديد مع النبي الذي سيظهر في أولاد إسماعيل فكاننا أمرنا بمخالفته، لاباتباعه. (٢) سورة البقرة ٧٦ (٣) الافتراء على الله: نسبة ما يكتبونه بأيديهم إلى الله تعالى وإلى التوراة (٤) أي بأصل الكتاب والشريعة.

سبب التساهل وارتكاب المناهي:

وأما التساهل في تنفيذ أحكام التوراة، وارتكابُ البخل والحرص، فظاهرٌ أنه من مقتضيات النفس الأمارة، وهي تغلب الناسَ جميعًا إلا من شاء الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ، إِلَّا مَارَحِمَ رَبِّيْ﴾[1]

ولكن هذه الرذيلة[2] قد تلوَّنت في أهل الكتاب بلون آخر؛ وهو أنهم كانوا يتكلفون تصحيحَها بتأويل فاسد، وكانوا يُبرزونها في صبغة الدين

أسباب استبعاد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

وأما استبعاد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،فأسبابُه:

١- اختلاف عادات الأنبياء وأحوالهم في إكثارالتزوج والإقلال منه، وماأشبه ذلك.

٢- واختلاف شرائعهم.

٣- واختلاف سنة الله تعالى في معاملة الأنبياء

٤- وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم من بني إسماعيل ،بعد ماكان جمهور الأنبياء من بني إسرائيل.

٥ - وأمثال هذه الأسباب.

النبوة ومنهجها في إصلاح الناس:

والأصل في هذه المسئلة: أن النبوة كائنةٌ لإصلاح نفوس الناس، وتهذيب عباداتهم وتعديل عاداتهم، لالإنشاء أصول البر والإثم؛ولكل قوم عادات في العبادات، وتدبير المنزل، والساسية المدَنِيَّةِ ، فإذا ظهرت فيهم النبوة فلا تستأصل هذه العادات بالمرَّة، ولا تضع لهم عاداتٍ جديدةً، بل تميِّزُ فيما بين العادات، فماكان منها صالحا مطابقا لرضى الله تعالى تُبقِي، وتحفظه، وماكان منها مخالفاً للإصل، منافيا لرضى الله تعالى تُغيره حسب

(١)سورة يوسف ٥٣(٢) الرذيلة: ضد الفضيلة، والجمع رذائل.

الضرورة وتعدُّله.

وكذلك يكون التذكير بآلآء الله، وبأيام الله على الأسلوب الذى هو معروف عندهم، وشائع لديهم؛ فهذا هو السبب فى اختلاف شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

اختلاف الشرائع كاختلاف وَصَفَاتِ الطبيب

وهذا الاختلاف في الشرائع كالاختلاف فى وصفات الطبيب: فإنه إذا دَبَّر أمرالمريضَيْن يصف لأحدهما دواء وغذاء باردًا، ويأمرالآخرَبدواء وغذاء حار، وغرض الطبيب من معالجتهما واحد، وهو إصلاح مزاجهما، وإزالة المواد الفاسدة منهما، لاغير؛ويمكن أن يصف الطبيب فى كل منطقة أدوية وأغذية مختلفة، تلا ئم أهلها، وكذلك يختارفى كل فصل من الفصول علاجا مختلفا يناسب ذلك الفصل.

كذلك لماأراد الطبيب الحقيقى ــ جلَّ مجدُه ــــ معاجلةَ من ابتُلى بالمرض النفسانى،وتقويةَ القوة الملكية، وإزالةَ الفساد الطارئ عليهم، اختلفت المعالجة بحسب اختلاف أقوام كل عصر وعاداتهم، ومشهوراتهم، ومسلماتهم.

أنموذج اليهود

وعلى كلٍّ، فإن أردت أن ترى أنموذج[1]اليهود، فانظر إلى علماء السوء الذين يطلبون الدنيا، ويولعون بتقليد السلف، ويُعرضون من نصوص الكتاب والسنة، ويستندون إلى تعمقِ عالمٍ وتشدُّده، أو إلى استحسانه، فاعرضوا عن كلام الشارع المعصوم، وجعلوا الأحاديث الموضوعة، والتأويلات الفاسدة قدوة، فانظر كأنهم هم!

---

(١)الأنموذج والنموذج: مثال الشيء أصلهما كلمة فارسية، وهى نمونه.

ذكر النصارى

عقيدة التثليث والرد عليها

أما النصارى: فكانوا مؤمنين بسيدنا عيسى عليه السلام، وكان ضَلالهم: أنهم يزعمون أن لله تبارك وتعالى ثلاثةَ أجزاء متغايِرة بوجه، ومتحدة بآخرَ؛ وكانوا يسمونها "الأقانيمَ[1] الثلاثة":

أحدها: الأب؛ وهو بإزاء مبدأ العالم[2]

والثاني:الابن؛ وهو بإزاء الصادر الأول الذى هومعنى عام شامل لجميع الموجودات[3]

والثالث: روح القدس ؛ وهو بإزاء العقول المجردة.

وكانوا يعتقدون أن أقنوم "الابن" تدرع[4] بروح عيسى عليه السلام أى كما أن جبرئيل عليه السلام قد يظهر فى صورة الإنسان، كذلك ظهر الابن فى صورة روح عيسى عليه السلام ؛ فعيسى إلّه وابنُ إلّه وبشر أيضًا فى وقت واحد؛ وتجرى عليه الأحكام البشرية والإلّهية معًا.

وكانوا يتمسكون فى إثبات هذه العقيدة ببعض نصوص الإنجيل التى أُطلق فيها لفظ "الابن" على عيسى عليه السلام[5]،وكذلك يستدلونِ بالآيات

---

(١)الأقانيم جمع الأقنوم،وهي كلمة سُريانية، معناها: الشخص (Person)والأصل (٢)قارن الإمام المصنف رحمه الله مصطلحات النصارى بمصطلحات الفلاسفة؛ والفلاسفة يعنون بمبدأ العالم ذاتَ الواجب تعالى،وبالصادر الأول العقلَ الأولَ، وبالعقول المجردة العقول العشرة؛ والعقل عندهم: جوهر مستغن فى أفعاله عن الآلات الجسمانية، متوسط بين الواجب ومصنوعاته في إفاضة الوجود.(٣)الصادر الأول أى العقل الأول عند الفلاسفة سبب لوجود جميع الكائنات، فهو شامل لجميع الموجودات بهذا المعنى. وهوعند أرباب الحقائق: الوجود المنبسط المخلوق، ومنهُ وجد العالم بحذافيره (٤) تدرَّع أى تقمَّص (٥) راجع إنجيل مُرْقُس ١٣ : ٣٢ وإنجيل لوقا ٢٣ : ٤٦ والمواضع الكثيرة من إنجيل يوحنًا.

التى نَسب فيها عيسى عليه السلام بعضَ أفعال اللّٰه تعالى إلى نفسه[1]

وجواب الإشكال[2] الأول: على تقدير صحة نصوص الإنجيل، وأنه ليس فيها تحريف: أن لفظ "الابن" فى العهد القديم، كان مستعملا بمعنى المحبوب والمقرب والمجتبى، كما يدل عليه كثير من القرائن فى الإنجيل.

وجواب الإشكال الثانى: أن تلك النسبة على طريق الحكاية؛ كما يقول رسول الملِك: "إنَّا فتحنا البلدَ الفُلانى" و "لقد حطمنا القلعة الفلانية" وفى الحقيقة هذا الأمر راجع إلى الملِك؛ وأما الرسول فإنما هو ترجُمان الملك فحسب.

والجواب الثانى: أنه يحتمل أن يكون الوحى إلى عيسى عليه السلام عن طريق انطباع[3] المعانى فى لوح قلبه من قِبَل العالم العُلوى، لاعن طريق تمثُّل جبرئيل عليه السلام فى صورة البشر، وإلقاء الكلام إليه؛ فبسبب هذا الانطباع جرى منه عليه السلام كلام مشعر بنسبة تلك الأفعال إلى نفسه؛ والحقيقة غير خفية.

وبالجملة: فقد ردَّ اللّٰه تعالى هذا المذهب الباطل، وبيَّن أن عيسى عبدُ اللّٰه وروحه المطهرة التى نفخها فى رحِم مريمَ الصديقة، وأنه تعالى أيَّده بروح القدس، وحاطه[4] عليه السلام بعناية خاصة.

وبالجملة: فلو فرضنا أن اللّٰه سبحانه وتعالى ظهر فى الكسوة الروحية، التى هى من جنس الأورواح[5] وتدرَّع بالبشرية، فلا ينطبق لفظ " الاتحاد" على هذا

---

(١) كما فى الأصحاح الثامن من إنجيل متّى: (جاء أبرص فقال لعيسى: يارب إن شئت فانت قادر على تطهيرى، فمدَّ يسوع يدَه ولمسه، وقال: "قد شئتُ فاطهر " فَطَهُر للوقت من برصه (الآيات ١-٣) (٢) الإشكال بمعنى الاشتباه والالتباس، من أشكل الأمر: إذا التبس (٣) الانطباع (چھپنا، ڈھلنا، ﺑﮭﺮ جانا) مطاوع لطبع (٤) حاط حَوْطًا الشئ: حفِظه وتعهَّده بجلْب ما ينفعُه، ودفع مايضرُّه (حفاظت کرنا، نگہبانی کرنا) (٥) اى ان الكسوة الروحية أيضًا روح من الأرواح.

المعنى عندالتدقيق والإمعان، إلابتسامح؛ وأقرب الألفاظ لهذا المعنى: هو "التقويم" ومثله[1]؛ تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرًا.

أنموذج النصارى

وإن شئت أن ترى نموذجاً لهذا الفريق، فانظر اليوم إلى أولاد المشايخ والأولياء، ماذا يظنون بآبائهم؟وإلى أىّ حدوصلوابهم!﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَّنْقَلِبُوْنَ !﴾[2]

عقيدة مصلوبية المسيح والرد عليها

ومن ضلالاتهم أيضًا: أنهم يجزمون بأن عيسى عليه السلام قد قُتل، مع أن الواقع خلاف ذلك ،وقد شُبِّه لهم، والتبس عليهم الأمر، فظنوا رفعه إلى السماء قتلاً، ورووْا هذا الغلط كابرًاعن كابر، فكشف الله تعالى السّتار عن حقيقة الأمر فى القرآن العظيم قائلاً:﴿وَمَا قَتَلُوْهُ وَمَا صَلَبُوْهُ،وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[3]

وأما ما ذكر فى الإنجيل من قول عيسى عليه السلام فى هذا الباب[4] فمعناه: أنه إخبار بجرأة اليهود، وإقدامهم على قتله ؛ ولكن الله تعالى أنجاه من هذه المهلكة.

---

(١)حاصل ما قاله الإمام المصنف رحمه الله: أن النصارى يقولون بالاتحاد بين الله تعالى وبين عيسى عليه السلام بأن الله تعالى تقمَّصَ بشرية عيسى عليه السلام، فصار متحدًا معه، فردَّ عليهم المصنف رحمه الله، وقال: لو فرضنا أن الله تعالى صار روحافي أول الأمر، ثم تقمص بشرية عيسى عليه السلام ثانيا، فلا ينطبق عليه لفظ " الاتحاد " أى لم يصر سبحانه وتعالى مع هذا متحدا مع عيسى عليه السلام فى النظر الممعن؛ لأن الله تعالى بمنزلة الروح، وبشرية عيسى بمنزلة الجسد، والروح لاتكون متحدة مع الجسد أبدًا، بل تكون مقوّمةً ومعدِّلةً فحسب، فكيف يقول الظالمون بالاتحاد بينه تبارك وتعالى وبين عبده عيسى عليه الصلاة والسلام؟!(٢) سورة الشعراء ٢٢٧(٣) سورة النساء ١٥٧(٤) جاء فى إنجيل متّى (٢٦: ٤٥): انظروا قد اقتربت تلك الساعة، وابن الناس يُصلب بأيدى الفجار الظلمة.

وأما كلام الحواريين[1]فإنه ناشٍ عن اشتباه الأمر، وعدم وقوفهم على حقيقة الرفع الذى لم يكن مألوفًا لعقولهم، ولالأسماعهم.

تحريفهم فى بشارة الفار قليط[2]

ومن ضلالاتهم أيضًا: أنهم يقولون: إن الفار قليط الموعودَ هو عيسى عليه السلام نفسُه، الذى جاء بعد قتله إلى الحواريين،وأوصاهم بالتمسك بالإنجيل[3]ويقولون: إن عيسى عليه السلام أوصاهم أيضًا بأن المتنبئين سيكثرون ، فمن سمَّانى فاقبلوا كلامه، وإلا فلا.

وقد بين القرآن العظيم أن بشارة عيسى عليه السلام تصدُق على نبينا صلى الله عليه وسلم ، لاعلى الصورة الروحية لعيسى عليه السلام ؛ لأنه قد صُرِّح فى الإنجيل بأن الفار قليط يمكث فيكم مدة طويلة،ويعلِّم العلم، ويزكى الناس؛ ولايظهر هذا المعنى فى غير نبينا صلى الله عليه وسلم .[4]

وأما ذكرُ عيسى عليه السلام وتسميته فالغرض منه التصديق بنبوته، لا أن يتخذه ربا، أو يعتقد بأنه ابن الله.

ذكر المنافقين

نفاق الاعتقاد ونفاق العمل

أماالمنافقون: فكانوا على قسمين :

١-طائفة منهم يقولون بألسنتهم:"لاإله إلا الله، محمد رسول الله "، وقلوبهم مطمئنة بالكفر، ويُضمرون[5]الجحود الصرف فى أنفسهم، قال الله تعالى فى

(١) أى إخبار الحواريين بقتل عيسى عليه السلام(٢)فار قليط (Peroclitus) كلمة سريانية،معناها: أحمد (أفعل التفضيل من الحمد) أى الذى يحمد الله تعالى أكثر من كل احد(٣)كما فى الباب الثانى من كتاب الأعمال،وراجع إظهار الحق (٢: ١٩٧-٢٠١)(٤) لأن روح عيسى عليه السلام لم تمكث عندهم الإقليلا ، على زعمهم. (٥)اضمر الشئ: اخفاه

حقهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ فِىْ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[1]

٢- وطائفة دخلوا فى الإسلام مع ضعفٍ فيه.

مظاهر نفاق العمل

١- فمنهم من يعتاد موافقة قومهم: إن ثبت القوم على الإيمان ثبتوا، وإن رجع القوم إلى الكفر رجعوا.

٢- ومنهم من استولى على قلوبهم الانسياق[2] وراء اللذات الدنيوية الدنيئة، بحيث لم يذَر فى قلوبهم مكانا لحب الله، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم.

٣- ومنهم من تملّك قلوبَهم الحرصُ على المال والحسدُ والحِقْدُ، ونحوُ ذلك من الرذائل، بحيث لم يبق فى قلوبهم محل لحلاوة الابتهال والمناجاة، ولا لبركات العبادات.

٤- ومنهم من انغمسوا فى شئون المعاش واشتغلوا بها، حتى لم يبق لديهم فرصة للاهتمام بأمر الآخرة، ولترقُّبها وللتفكير فيها.

٥ - ومنهم من تخطر ببالهم ظنون واهية وشبهات ركيكة فى رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، وإن لم يبلغوا إلى أن يخلعوا رِبْقةالإسلام عن عنقهم، وينفضُوا أيديهم منه بتاتا.

وسبب تلك الشكوك: جَرَيان الأحكام البشرية على نبينا صلى الله عليه وسلم، وظهورالملة الإسلامية فى صورة سَيْطرة الملوك على أطراف البلاد، وأمثالُ ذلك.

٦- ومنهم من حملتهم مَحبة القبائل والعشائر على أن يبذلوا الجهد البليغ فى نصرتهم، وتقويتهم وتأييدهم، ولوكان ذلك على مُناواةأهل الإسلام؛ ويضعُفون أمر الإسلام عند التعارض، ويُلحقون به الضرر.

---

(٢) سورة النساء ٤٥ (٣) الانسياق : مطاوع ساقه أى تبع غيره ومشى خلفه.

الكلام حول قسمَيِ النفاق:

وهذا القسم من النفاق[1] هو نفاق الأعمال والأخلاق، ولايمكن الاطلاع على النفاق الأول بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه من الأمور المغيبة، ولايمكن الاطلاع على مكنونات القلوب.

والنفاق الثانى كثير الوقوع، لاسيما فى عصرنا، وإليه جاء ت الإشارة فى الحديث الشريف: "أربع من كنَّ فيه كان منافقا خالصاً: إذا اؤْتُمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدَر، وإذا خاصم فجر"[2] وقال: " هَمُّ المنافق بطنه ،وهمُّ المؤمن فرسه "[3] إلى غير ذلك من الأحاديث.

الغرض من ذكر أحوال المنافقين فى القرآن العظيم

وقد كشف الله تعالى فى القرآن العظيم عن معايب المنافقين وأعمالهم، وذكر من أحوال الفريقين أشياء كثيرة، لتحترز الأمة بأسرها منها.

نموذج المنافقين

وإن شئت أن ترى نموذَجا للمنافقين، فانطلقْ إلى مجالس الأمراء، وانظر إلى مُصاحبيهم وندمائهم، يُؤْثرون رضى الأمراء على رضى الله تعالى.

ولافرق عند المنصف بين المنافقين الذين سمعوا كلامَ الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرةً ثم نافقوا،وبين هؤلاء المنافقين الذين وُلدوا فى هذا الزمان، ثم علموا أحكام الشريعة بطريق القطع واليقين، ثم أقدموا على خلافها، وانحرفوا عنها.

وكذلك طائفة من المعقوليين الذين تمكنت فى خواطرهم شكوك وشبهات كثيرة، ونسوا الدار الآخرة، فهم أيضًا نموذج المنافقين.

---

(١) يعنى القسم الثانى بجميع أنواعه (٢) رواه الستة إلا ابن ماجه عن ابن عمرو رضى الله عنهما (٣) لم أجده مع الجهد البليغ

القرآن كتاب كل عصر

وعلى كلٍّ ، فإذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا، كلا، بل مامن بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو موجود اليوم بطريق الأنموذج، كما ورد في الحديث الشريف: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"(١) فمقصود القرآن الكريم بيان كليات تلك المفاسد، لاخصوص الحوادث.

هذا ماتيسر لي في هذا الكتاب من بيان عقائد الفرق الضالة، والردود عليها؛ وأظن أن هذا القدر كاف في فهم معاني آيات الجدل إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

في
بقية مباحث العلوم الخمسة

بيان التذكير بآلاء الله

لِيُعْلَمْ أن نزول القرآن الكريم إنما كان لإصلاح النفوس البشرية سواء كانوا عربا أو عجما، بدوا أو حضرًا ؛ فلذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يُخاطب الناسَ في التذكير بآلاء الله إلا بما تسعه أذهانهم، وتُحيط به مداركهم، ولايُبالغ في البحث والتحقيق مبالغة زائدة؛ فسيق الكلام في أسماء الله تعالى وصفاته بوجه يمكن فهمه، والإحاطةُ به بإدراك وفطانة خُلق أكثر أفراد الإنسان عليهما في أصل خِلقتهم، من دون حاجة إلى ممارسة الفلسفة الإلهية ومزاولة علم الكلام.

---

(١) حديث متفق عليه، وتمامه : " شِبْرا بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ تبِعتُموهم " مشكوة رقم الحديث ٥٣٦١ كتاب الرقاق، باب تغير الناس.

إثبات الذات وبيان الصفات

فأثبت سبحانه وتعالى ذات المبدأ إجمالاً ، إذ أن معرفتَه تعالى مركوزة في فطرة بني آدم؛ لاترى طائفةً منهم في الأقاليم الصالحة، والأماكن القريبة من الاعتدال ينكرون ذلك.

ولما كان إثبات الصفات الإلٰهية بطريق الإمعان، وتحقيق الحقائق، مستحيلا بالنسبة الى أفراد الإنسان؛ ولو لم يطّلعوا على صفاته تعالى إطلاقًا لم يصِلوا إلى معرفة الربوبية التي هي أنفع الأشياء في تهذيب النفوس ؛ فكان من حكمة اللّٰه تعالى: أنه اختار شيئا من الصفات البشرية الكاملة التي يعرفونها، ويجرى التمدُّح بوجودها فيما بينهم، فاستعملها بإزاء المعاني الدقيقة الغامضة التي لا مدخل للعقول البشرية في ساحة جلالها؛ وجعل الأصل المصَّرح بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ترياقا للداء العُضال من الجهل المركب؛ ومنع من إثبات الصفات البشرية التي تثير الأوهام إلى العقائد الباطلة ، كإثبات الولد والبكاء والجزع له تعالى شأنه.

صفاته تعالى توقيفية

وإن أمعنتَ النظر في مسئلة الصفات الإلٰهية تجلى لك أن الجرى على مِسْطرة العلوم الإنسانية، غير المكتسبة، وتمييزَ صفات يجوز أن تُنسب إلى اللّٰه تعالى، ولايقع بها خلل، عن الصفات التي يؤدى إثباتُها إلى الأوهام الباطلة، أمر دقيق خطير للغاية، لايُدرك غورَه جمهور الناس؛ فلا جرم كان هذا العلم توقيفيا، لم يُسمح فيه بالبحث بحرِّية وإطلاق.

بيان آلآئه تعالى وآيات قدرته:

واختارسبحانه وتعالى من آلآئه وآيات قدرته ما يستوى في فهمه الحَضَريُ والبدوى، والعربي والعجمي؛ ولأجل ذلك لم يذكر النِّعَم الروحانية

المخصوصة بالعلماء والأولياء،[1] ولم يُخبربالنعم الإرتفاقية المخصوصة بالملوك[2]؛ وإنما ذكر سبحانه وتعالى ما ينبغى ذكره، مثلُ خلق السمٰوات والأرض، وإنزال المطر من السحاب، وتفجير الينا بيع فى الأرض،وإخراج أنواع الثمار والحبوب والأزهار بالماء، وإلهام الصنائع والحِرَف الضرورية، وخلق القدرة لممارستها ومزاولتها.

وقد نبَّه فى مواضع كثيرة على اختلاف أحوال الناس عندهجوم المصائب، وانكشافها ببيان الأمراض النفسانية الكثيرة الوقوع .[3]

بيان التذكير بأيام الله

واختار سبحانه وتعالى من أيام الله ـــــ أى من الوقائع التى أحدثها الله تعالى من قبيل تنعيم المطيعين، وتعذيب المجرمين ـــــ ما قرع أسماعهم[4] من قبلُ وكانوا قد سمعوا عنه بالإجمال، مثلُ قِصَصِ قوم نوح وعاد وثمود التى تتلقاها العرب أباعن جد؛ ومثل قصَصِ إبراهيم، وقصص أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام التى أَلِفَتْها أسماعُهم لطول اختلاط العرب مع اليهود؛ولم يذكرالقصَصَ الغريبةَ، غيرَ المألوفةِ للعرب، ولاأخبار مجازاة الفارس والهنود.[5]

---

(١) كفرح كشف النكات النافعة، ومسرّة حل المعضلات، وكحلاوة العبادة، والانبساط برؤية الأنوار الإلهية.(٢) النِّعَم الارتفاقية : هى التى يحتاج إليها الرجل، ليقضى بها حاجاته النوعية من الأكل والشرب والجماع والاستظلال من الشمس والمطر، والاستدفاء فى الشتاء، وغيرها(یعنی زندگی بسر کرنے کے لئے ضروری سامان) (٣)أى تتغير مواقف الناس عند السّراء والضّراء،وأوضح سبحانه وتعالى ذلك بأمثلة الأمراض النفسانية الكثيرةالوقوع ليفهمها جميع الناس ، كما قال تعالى: "إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوْعًا: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوْعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوْعًا(المعارج ١٩ـــ٢١)(٤) قرع سمعه أى وقع فى أذنه (٥)المراد بأخبار مجازاة الفارس:حروبهم وملاحمهم،كقصص رستم،واسكندر،ودارا وغيرها؛ والمراد بأخبار مجازات الهنود أيامهم الشهيرة، كحرب مها بهارت، وغيرها.

ذُكرمن القصص ماهوالغرض منها

وانتزع سبحانه وتعالى من القصص المشهورة جِمَاعًا[1] تنفع فى التذكير والموعظة ، ولم يَسْرُد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها.

والحكمة في ذلك: أن العوامَّ إذا سمعوا قصة نادرة غايةَ النُدرة، أو ذُكرت القصةُ عندهم بجميع خصوصياتها وتفاصيلها، فإن طباعهم تميل إلى نفس القصة ، ويفوتهم الغرض الأساسى الذى هو التذكُر.

ومثال ذلك ماقاله بعض العارفين: "إن الناس لما حفِظوا قواعدَ التجويد شُغلوا عن الخشوع في التلاوة، ولما بدأ المفسرون يتكلمون فى الوجوه البعيدة فى التفسير،أصبح علم التفسير نادرًا كالمعدوم".

القصص المتكرِّرة فى القرآن:

ومماتكرر من القصص فى القرآن العظيم.

- قصة خلق آدم من الطين، وسجود الملائكة له، واستكبار الشيطان عنه، وكونه ملعونا ،وسعيه بعد ذلك في إضلال بنى آدم .
- وقِصَصُ مُحاجَةِ نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام مع شعوبهم وأقوامهم فى توحيد الله تعالى،والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،واستكبار الأقوام عن الإيمان، وإدلائهم[2] بشبهات ركيكة، وردود الأنبياء عليها،وابتلاء الأقوام بالعقوبة الإلٰهية ، وظهور نصرة الله تعالى فى حق الأنبياء وأتباعهم.
- وقِصَص موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَائِه، ومع سفهاء بنى إسرائيل ومكابرتهم معه عليه السلام، وعقاب الله تعالى لأولئك الأشقياء، وظهور نصرة الله تعالى متتالية لنجيِّه عليه السلام.
- وقصص داود وسليمان عليهما السلام، وخلافتهما وآياتهما وكراماتهما.

(١)الجِمَاع: مجتمَع أصله، يقال: هذا الباب جِمَاعُ هذه الأبواب أى الجامع لها،الشامل لمافيها. (٢)أدلى فلان بحجته أى أحضرها، واحتجَّ بها.

●وقصص مِحنة[1] أيوب ويونس عليهما السلام، وظهور رحمة الله تعالى لهما.

●وقصة دعاء زكريا عليه السلام، واستجابة الله تعالى إياه.

●وقصص سيدنا عيسى العجيبةُ: من ولادته من غير أب، وتكلمه فى المهد، وظهور الخوارق على يده.

فذكرت هذه القِصَص فى القرآن العظيم بأساليبَ متنوعةٍ من الإيجاز والإطناب حسب مقتضَى الأساليب المرعية فى السور.

ماذكرت من القصص مرة أو مرتين فقط

وأما القصص التى لم تتكرر فى القرآن ، بل وردت فى موضع أو موضعين فحسب، فهى:

●قصة رفع سيدنا إدريس عليه السلام مكانا عليا[2]

●وقصة مُحاجَّة سيدنا إبراهيم عليه السلام لنمروذ ،ومشاهدته لإحياء الطير، وقصة ذبح ولده الوحيد.[3]

●وقصة سيدنايوسف عليه السلام.

●وقصةولادة سيدنا موسى عليه السلام، وإلقائه فى الْيَمّ وقتله القبطى، وتوجُّهه إلى مَدْيَنَ، وتزوجه هناك، ورؤيته النار على الشجرة، وسَماع الكلام منها.

●وقصة ذبح البقرة.

●وقصة لقاء موسى مع الْخَضِر عليهماالسلام.

●وقصة طالوت وجالوت.

●وقصة بِلْقِيْسَ[4]

---

(١)المحنة: البلاء والشدّة ج مِحَنٌ(٢) وذلك فى سورة مريم ٥٧ والصحيح فى معناه: أنه شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى، وعلو المرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا، قاله ابن كثير فى تاريخه (١: ١٠٠) وما رُوى من رفعه إلى السماء الرابعة فهو من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، قاله ابن كثير فى تفسيره (٣: ١٢٦) (٣) الوحيد: المنفرد (اكلوتا) (٤) هى ملكة سبأ.

● وقصة ذى القرنين
● وقصة أصحاب الكَهْف
● وقصة الرجلين المتحاوِرَيْن.
● وقصة أصحاب الجنة [1].
●وقصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم عيسى عليه السلام لدعوة الدين، وقصة المؤمن الذى قتله الكفار شهيدا .
●وقصة أصحاب الفيل .

فليس الغرض من سرد هذه القصص فى القرآن الكريم معرفتَها بأنفسها [2] بل الغرض الأساسى : هو أن ينتقل ذهن القارئ والسامع إلى شناعةِ الشرك والمعاصى، ومعاقبةِ الله تعالى عليها واطمئنان المؤمنين بنصرة الله تعالى وتأييده ، وظهور ألطافه وأفضاله تعالى فى حق عباده المخلصين.

بيان التذكير بالموت وما بعدَه

وقد ذكرجلَّ شأنه من الموت وما بعدَه: كيفيةَ الإنسان عند موته، وعَجْزِه فى تلك الساعة، وعرضَ الجنة والنار عليه بعد الموت، وظهورَ ملائكة العذاب أمامَه، وأشراطَ الساعة من نزول سيدنا عيسى عليه السلام [3] وخروجِ الدجال [4] وخروج دابّة الأرض [5] وخروج يأجوجَ ومأجوجَ، ونفخةَ الصعق، ونفخة القيام، والحشر والنشر، والسؤال والجواب، والميزان، وأخذَ صحائف الأعمال بالأيمان والشمائل، ودخولَ المؤمنين الجنة، ودخول الكفار النار، وتخاصم أهل النار من التابعين والمتبوعين فيما بينهم، وإنكارَ بعضهم على بعض، ولعنَ بعضهم بعضا، واختصاصَ المؤمنين برؤية الله تعالى، وأنواعَ

---

(١) الجنة :الحديقة وقصتها فى سورة القلم (١٧: ٣٣) (٢) أى الاطلاع عليها، والتعرف على جزئياتها فحسب. (٣) جاء ذكره فى سورة الزخرف ٦١ فى قوله تعالى: وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ (٤) ينزل المسيح عليه السلام بعد خروج الدجال ، فيقتله الله تعالى على يديه؛ وليس لخروجه ذكر فى القرآن أصرحُ من هذا (٥) جاء ذكرها فى سورة النمل ٨٢ وليس فى الأصل الفارسى ذكر خروج دابة الأرض .

العذاب من السلاسل والأغلال والحميم والغسّاق والزقوم[1] وأنواعَ النعم من الحور والقصــور والأنهــار،والمطــاعم الهنيئة والملابس الناعمة[2] والنساء الجميلات، ومجالسَ أهل الجنة الفَكِهَة الطيبة المفرِّحةِ للقلوب.

ففرَّق سبحــانه وتعــالى هــذه المطــالب فى مختلف السور بالإجمال والتفصيل، مراعيًا أساليبها الخاصة.

بيان علم الأحكام

والقاعدة الكلية فى مباحث الأحكام: أن سيدنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد بُعث بالملة الإبراهيمية الحنيفية، فلزم إبقاءُ شرائع تلك الملّة، وأن لايُحدَثَ أىُّ تغير فى أمهات مسائلها؛ اللهم إلا تخصيصا لعموماتها، وزيادةً للتوقيتات والتحديدات فيها، وأمثالَ ذلك.

ولما أراد الله سبحانه وتعالى أن يزكّىَ العرب بنبينا صلى الله عليه وسلم، ويزكّىَ سائر الأقاليم بالعرب لزم أن تتكوَّن مادّةُ [3] شريعته صلى الله عليه وسلم من رسوم العرب وعاداتهم[4].

فإذا أنعمتَ النظر فى مجموع شرائع الملة الحنيفية، ولاحظتَ عاداتِ العرب ورسومَهم، وتأملتَ فى تشريعه صلى الله عليه وسلم ـــــ الذى هو بمنزلة الإصلاح والتهذيب لها[5] ـــــ علمتَ أن لكل حكم سببا، وفهمتَ أن لكل أمرونهى مصلحةً، وتفصيل ذلك يطول.

---

(1) السلاسل جمع السلسلة: حبل الحديد(زنجير) والأغلال جمع الغل: طوق من حديد أوجلد يُجعل فى اليد والعنق (ہتھکڑی یا طوق)؛ والحميم: من الأضداد: الماء الحار والماء البارد؛ والغسّاق: البارد أو المنتن أو مايسيل من صديد أهل النار؛ والزقوم: شجرة ذات شوكة، تنبت فى أصل الجحيم(تھوہڑ) (2) الحور جمع الحوراء: البيضاء؛ والقصور جمع القصر: المكان المرتفع؛ والهنيئة: المرغوبة؛ والناعمة: اللينة (3) مادّة الشئ: أصوله وعناصره التى منها يتكوّن، حسّية كانت أو معنوية، كما دّة الخشب ومادة البحث العلمى. (4) أى مما توارثوها من الملة الحنيفية، وانحرفوا عن جادتها فى كثيرمنها. (5) أى لعادات العرب ورسومهم.

دَورالتشريع الإسلامى فى إصلاح الملة الحنيفية المحرَّفة:

وبالجملة فقدكان تَطَرَّق إلى العبادات من الطهارة والصلاة والصوم والزكوة والحج والذكر فتورٌعظيم، من جهة التساهل فى إقامتها، واختلاف الناس فيها بسبب عدمِ معرفةِ أكثرِها، وتسَرُّب التحريفات الجاهلية إليها، فأصلح القرآن العظيم ذلك الاختلال كلّه، وسوَّاها حتى استقام أمرُها.

وأما تدبير المنزل[1] فقد كانت حدثت فيه رسوم ضارَّة، وأنواعُ تعدّ وعتوٍّ؛ وهكذا اختلَّت أحكام السياسة المدنية؛ فضبطَ القرآن العظيم لهما أصولاً، وحدد لهما حدودًا، وذكر من هذا الباب[2] أنواعا من الكبائر، وكثيرًا من الصغائر، لتحترز الأمة عنها.

وذكر مسائلَ الصلاة إجمالاً،واستعمل فيها لفظ " إقامة الصلاة " ففصَّلها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالأذان وبناء المساجد والجماعة والأوقات وكذلك ذكر مسائل الزكاة بالاختصار، وفصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أيَّمَا تفصيلٍ، وذكر الصومَ فى سورة البقرة؛ وذكر الحج أيضًا فيها وفى سورة الحج؛ وذكر الجهاد فى سورة البقرة والأنفال وفى مواضع متفرقة أخرى ؛ وذكر الحدود فى المائدة والنور؛ وذكر المواريث فى سورة النساء؛ وبَيَّنَ أحكام النكاح والطلاق فى سورة البقرة والنساء والطلاق وغيرها من السور.

التعريضات التى تحتاج إلى البيان

وإذا عرفتَ هذا القسم الذى تَعُمُّ فائدته جميعَ الأمة[3] فههنا قسم آخر وهو:

- أنه كان يُعْرَض عليه صلى الله عليه وسلم سؤال، فيجيب عنه[4].
- أو تقع حادثة يجود فيها المؤمنون بأنفسهم وأموالهم، ويُمسك المنافقون

---

(١) أى الحياة العائلية(٢)أى من باب تدبير المنزل والسياسة المدنية.(٣)أى عرفت القسم الذى فيه خطاب عام، ولايحتاج إلى معرفة شأن نزوله، (٤) كما سألوا عن الأهلة، وعن القتال فى الأشهر الحرم وعن الكلالة فأجيب عنه فى القرآن.

ويتبعون الهوى، فيمدح الله تعالى المؤمنين، ويذم المنافقين ويتوعدهم.[1]

- أو تقع حادثة من قبيل الغلبة على الأعداء، وكف ضررهم، فَيَمُنَّ الله تعالى بذلك على المؤمنين، ويذكّرهم بتلك النعمة[2]
- أو تحدث حالة تحتاج إلى تنبيه أو زجر أو إشارة أو إيماء[3] أو أمر، أو نهى، فينزل الله تعالى فى ذلك الباب.

فما كان من هذا القبيل فلا بد للمفسر من ذكر تلك القصص بطريق الإجمال

أمثلتها:

وقدوردت التعريضات بقصة غزوة بدر فى سورة الأنفال، وبقصة غزوة أُحُدٍ فى سورة آل عمران، وبقصة غزوة الخندق فى سورة الأحزاب، وبقصة صلح الحديبية فى سورة الفتح، وبغزوة بنى النضير فى سورة الحشر، وجاء الحث والتحريض على فتح مكة وغزوة تبوك فى سورة البراءة، ووردت الإشارة إلى حجة الوداع فى سورة المائدة، وجاءت الإشارة إلى قصة زواج زينب رضى الله عنها فى سورة الأحزاب، وإلى تحريم السُّرِّيَّة[4] فى سورة التحريم، وإلى قصة الإفك فى سورة النور،وجاء ذكر استماع وفد الجن تلاوة النبى صلى الله عليه وسلم فى سورة الجن والأحقاف، وذكرت قصة مسجد الضِّرار فى سورة البراءة،وأشير إلى قصة الإسراء فى أول سورة بنى إسرائيل.

هذه الآيات من التذكير بأيام الله

وهذا القسم من الآيات الكريمة فى الحقيقة نوع من أنواع التذكير بأيام الله؛ ولكن لما كان حل الإشارات فيها متوقفا على سماع القصة ميزت عن سائر أقسامها.

---

(١) كماوقع ذلك فى غزوة تبوك (٢) كما وقع ذلك فى غزوة الأحزاب. (٣) الإيماء: هوالإشارة الدقيقة. (٤) السُّرِّيَّةُ والجمع سَرَارِيٌّ: الأمة التى تقام فى البيت؛ والأغلب أن اشتقاقها من السِّر.

الباب الثانى

فى

بيان وجوه الْخَفاء فى معانى نظم القرآن بالنسبة إلى أهل هذا العصر، وأزالة ذلك الْخَفاء بأوضح بيان

لِيُعلم أن القرآن العظيم قد نزل فى لغة العرب القُحّة[1] المبينة الواضحة، وَفَهِمَ العرب معنى منطوقه بسليقتهم التى جُبلوا عليها، كما قال تعالى: ﴿والكِتَابِ المُبِيْنِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيْمٍ خَبِيْرٍ﴾[4]

وكان من مرضِيِّ الشارع الحكيم عدمُ الخوض فى تأويل المتشابهات القرآنية، وتصويرِ حقائق الصفات الإلٰهية، وتسمية المبهم، واستقصاء الْقِصَصِ، وما أشبه ذلك؛ ولذلك قَلَّما كانوا يسئلونه صلى اللّٰه عليه وسلم عن مثل ذلك؛ ولهذا لم يُرفع فى هذا الباب من الأحاديث إلاشيٍ قليل.

ولكن لما مضت تلك الطبقة وتَدَخَّل العجمُ، وتُركت تلك اللغة الأصيلة، واستعصى فهمُ المراد فى بعض المِواضع، ومست الحاجة إلى تفتيش اللغة والنحو، وجرت الأسئلة والأجوبة فيما بين الناس، وصُنِّفَتْ كتب التفسير، لزم أن نذكر هذه المواضع الصعبة إجمالاً، ونوردَ لها أمثلة حتى لايَحتاج المفسرعند الخوض فيها إلى زيادة بيان، ولا يضطر إلى المبالغة فى الكشف عنها وشرحها.

أسباب صعوبة فهم المراد من الكلام

فنقول: إن عدم الوصول إلى المراد من اللفظ يكون:

---

(١) القُحّة تانيث القُحّ: الخالص الخالى من الشوائب الغريبة. (٢) سورة الزخرف ٢ (٣) سورة يوسف ٢ (٤) سورة هود ١

●أحيانا بسبب استعمال لفظ غريب؛ وعلاجه : نقلُ معنى اللفظ عن الصحابة والتابعين ،وسائر أهل المعاني[1].

● وأحيانا لقلة الاطلاع على الناسخ والمنسوخ.

●وأحيانا للغفلة عن أسباب النزول.

●وأحيانا بسبب حذف المضاف أو الموصوف أو غيرهما.

● وأحيانا لإبدال شيئ بشيئ ، أو إبدال حرف بحرف ، أو اسم باسم ، أو فعل بفعل، أو لذكر الجمع مكان المفرد، أو بالعكس ، أو للالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

●وأحيانا لتقديم ما حقُّه التأخير أوبالعكس .

●وأحيانا بسبب انتشار الضمائر، أو تعدُّد المراد من اللفظة الواحدة.

● وأحيانا بسبب التكرار والإطناب.

●وأحيانا بسبب الاختصار والإيجاز

● وأحيانا بسبب استعمال الكناية والتعريض والمتشابه والمجاز العقلي.

فينبغي للإخوة السعداء أن يطلعوا في مبدأ الكلام[2]على حقيقة هذه الأمور، وعلى شيٍ من أمثلتها، ويكتفوا بالرمز والإشارة في مواضع التفصيل.

الفصل الأول

في

شرح غريب القرآن

وأحسن الطرق في شرح الغريب ما صَحَّ عن ترجُمان القرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما[3]،عن طريق ابن أبي طلحة[4]واعتمد عليه

(١) أهل المعاني: هم الذين لهم باع طويل وقدم راسخ في بيان معنى اللفظ القرآني، كالزجاج والفراء وغيرهما.(٢) يعني الكلام في تفسير القرآن الكريم(٣) هوصحابي جليل، حِبْر هذه الأمة، وُلد بمكة سنة ٣ ق هـ وتوفي بالطائف سنة ٦٨ هـ (٤) هو علي بن أبي طلحة سالم بن المخارق الهاشمي ولاءً، ولم يصلنا عن نشأته وحياته شي.

البخارى[1]في صحيحه غالبًا؛ ثم طريق الضحَّاك[2]عن ابن عباس، وأجوِبةُ ابن عباس عن سؤالات نافع بن الأزرق[3]؛ وقد ذكر السُّيوطى[4]هذه الطرق الثلاث فى كتابه: "الإتقان فى علوم القرآن"[5].

ثم مانقله البخارى من شرح الغريب عن أئمة التفسير[6]، ثم مارواه سائر المفسرين عن الصحابة والتابعين وأتباعهم رضى الله عنهم من شرح غريب القرآن.

وأرى من المناسب أن أجمع فى الباب الخامس من هذه الرسالة جملة صالحـة[7]من شـرح غريب القـرآن مـع بيـان أسباب النـزل، واجعلَها رسالة مستقلة[8] فمن شاء ضمَّها إلى هذه الرسالة، ومن شاء أفردها على حدة :[9]

وللناس فيما يعشقون مذاهب

القدماء ربما يفسرون اللفظ بلازم معناه

ومما ينبغى أن يُعلم هنا: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ربما يفسِّرون اللفظ بلازم معناه؛ وقد يتعقَّب المفسرون المتأخرون ذلك التفسير القديم، من جهة تتبُّع اللغة، وتفحُّص موارد الاستعمال[10].

والغرض المطلوب فى هذه الرسالة :[11] سَرْدُ تفسيراتِ السلف بعينها، ولنقدها وتنقيحها موضِع آخَرُغير هذا الموضع:

فلكل مقام مقال، ولكل نكتة مجال

---

(١)هوأبوعبدالله محمد بن إسماعيل البخارى: إمام الدنياوجبل الحفظ،صاحب الصحيح، وُلد سنة ١٩٤هـ وتوفى سنة ٢٥٦هـ(٢) هوضحاك بن مزاحم الهلالى ولاءً، البلخى الخراسانى، أبوالقاسم:مفسر،مات سنة ١٠٥ هـ (٣) نافع بن الأزرق الحرورى: من رؤس الخوارج، قتل سنة ٦٥هـ(٤) هوعبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى جلال الدين: إمام حافظ، ولد سنة ٨٤٩هـ وتوفى سنة ٩١١هـ له نحو٦٠٠ مصنف(٥)كتاب ماتع جامع مطبوع، وضعه السيوطى كمقدمة لتفسيره،ذكر فيه علوم القرآن فى ثمانين نوعًا ، وشرح الغريب فى النوع ٣٦ (٦) كمجاهد والحسن وقتادة وغيرهم.(٧) أى مقدارًا كافيا، (٨) سمَّاها الإمام المصنف بفتح الخبيربما لابد من حفظه فى علم التفسير(٩)لم نَضُم فتحَ الخبير مع الفوز الكبير فى طبعنا هذا، لعدم شموله فى الدرس فى المدارس الإسلامية بالهند. (١٠)مع أن تعقيبهم غير ملائم (١١) يعنى فتح الخبير.

الفصل الثانى

فى

معرفة الناسخ والمنسوخ

من المواضع الصَّعبة فى علم التفسير التى مباحثهَا كثيرة، والاختلاف فيها واسع: معرفة الناسخ والمنسوخ ؛ ومن أقوى وجوه الصُعوبة: اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين.

معنى النسخ عند المتقدمين:

والذى وضح لنا باستقراء[1] كلام الصحابة والتابعين: أنهم كانوا يستعملون "النسخ" فى معناه اللغوى، الذى هو " إزالة شئ بشئ " لا بمعنى مصطلح الأ صوليين[2] فمعنى النسخ عندهم: " إزالة بعض أوصاف الآية باٰية أخرى"[3] سواء كان ذلك:

- ببيان انتهاء مدة العمل.
- أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر.
- أو ببيانِ كونِ القيد إتفاقيا.
- أو بتخصيص عام.
- أو ببيان الفارق بين المنصوص وبين ماقيس عليه ظاهراً.
- أو بإزالة عادة من العادات الجاهلية

(١)استقرا الأمور:تتبعها لمعرفة أحوالها وخواصها (جائزه لينا)(٢)النسخ عند الأصوليين: بيان انتهاء حكم شرعى، بطريق شرعى، متراخ عنه، حتى لايجوز امتثاله؛ وبعبارة اخرى: إنه الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم، على وجه لولاه لكان ثابتا به، مع تراخيه عنه، ومغزى الحدين: أن المنسوخ لايبقى حكمه فى وجه من الوجوه، ولايكون له محمل من المحامل، ولايجوز امتثاله فى وقت من الأوقات.(٣) فالنسخ عند المتقدمين مطلق التغيير، الذى يطرء على بعض الأحكام.

•أو برفع شريعة[1] من الشرائع السابقة.

عدد الآيات المنسوخة عند المتقدمين:

فاتّسع باب النسخ عندهم، وكثر جَولان العقل فيه، واتّسعت دائرة الاختلاف لديهم، ولذلك بلغت الآيات المنسوخة عندهم إلى خمسِ مِائة آية؛ بل إذا حققت النظر تجدها غير محصورة؛[2] وأما المنسوخ حسب اصطلاح المتأخرين فلا يتجاوز العددَ القليل، لاسيما حسب ما اخترناه من التوجيه.

الآيات المنسوخة عند المتأخرين:

وقد ذكر الشيخ جلال الدين السُّيُوطي في " الإتقان " عن بعض العلماء ما ذكرناه آنفا، بتقريرٍ مبسوط كما ينبغي؛ ثم حَرَّر[3] المنسوخ طَبْق رأيِ المتأخرين، موافقا لرأى الشيخ ابن العربى[4] فعدَّه قريبًا من عشرين آية؛ وللفقير في أكثر ها نظر، فلنورد كلامه مع التعقيب[5]

فمن البقرة

١- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ الآية[6] منسوخة، قيل: بآية المواريث[7] وقيل: بحديث: لَاوَصِيَّةَ لِوَارِثٍ[8] وقيل بالإجماع، حكاه ابن العربى.

---

(١) الشريعة: القانون والحكم من الأحكام (٢) إذ لو عدَّ مثلُ ذلك في الناسخ والمنسوخ لعدَّ جميع القرآن منه؛ اذ كلُّه أو أكثره تغيير لما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من قبل. (٣) حَرَّر الكتاب: حسَّنة وأصلحه (٤) هو ابو بكر محمد بن عبد الله القاضي المالكي المعروف بابن العربى المعافرى الأندلسى ولد سنة ٤٦٨ هـ وتوفى سنة ٥٤٣ هـ وهو غير الشيخ ابن عربى الصوفى (٥) عقَّب على فلان: بين عيوبَه وأغلاطه؛ وعقَّب الشيءَ: أتى بشيء بعده (٦) سورة البقرة ١٨٠ وتمام الآية: إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنَ بِالْمَعْرُوْفِ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِيْنَ (٧) يعنى بقوله تعالى: " يُوْصِيْكُمُ اللّٰهُ فِيْ أَوْلَادِكُمْ " الآيات من سورة النساء ١١-١٤ (٨) رواه عشرة من الصحابة، وخرَّجه أصحاب السنن غير النسائى عن أبى أمامة، وغير أبى داود عن عمرو بن خارجة، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح (انتهى) وتلقته الأئمة بالقبول.

قلت:بل هي منسوخة بآية: ﴿يُوْصِيْكُمُ اللّٰهُ فِيْ اَوْلَادِكُمْ﴾وحديثُ "لا وصية" مبيِّن للنسخ.

٢ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِيْنَ يُطِيْقُوْنَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِيْنٍ﴾[١] قيل: منسوخة بقوله تعالى:﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[٢]وقيل:محكمة، ولا مقدَّرة[٣]

قلت: عندى وجه آخر: وهو أن المعنى: وعلى الذين يطيقون الطعام [٤] فدية؛ هى طعام مسكين؛ فاضمر قبل الذكر لأنه متقدم رتبة؛ وذكَّر الضمير، لأن المراد من الفدية هو الطعام ؛ والمراد منه صدقة الفطر؛ عقَّب اللّٰه تعالى الأمر بالصيام فى هذه الآية بصدقة الفطر، كما عقَّب الآية الثانية بتكبيرات العيد،

٣ ـ قوله تعالى:﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلىٰ نِسَاءِ كُمْ ﴾[٥] ناسخة لقوله تعالى:﴿يٰاَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٦]لأن مقتضاها[٧]الموافقةُ فيما كان عليهم من تحريم الأكل والوطء بعد النوم؛ ذكره ابن العربى؛ وحكى قولاً آخر: أنه نسخٌ لما كان بالسنَّة[٨]

قلت:معنى"كماكتب"التشبيه فى نفس الوجوب فلا نسخ ، إنما هو[٩]تغيير لماكان عندهم قبل الشرع؛ ولم نجد دليلا على أن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم شرع لهم ذلك؛ ولو سُلِّم فإنما كان ذلك بالسنة[١٠]

٤ـ قوله تعالى:﴿يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾الآية[١١] منسوخة بقوله تعالى:

(١)سورة البقرة ١٨٤(٢) سورة البقرة ١٨٥ (٣) والآية للشيخ الفانى، وضمير يطيقونه يرجع إلى الصوم.(٤)أى يطيقون الإطعام، لكونهم أصحاب نُصُب بقدرة ممكِّنة (٥)سورة البقرة ١٨٧ (٦) سورة البقرة ١٨٣(٧) اى مقتضى الآية الثانية (٨) أى أنه نسخ لما كان معمولا عندهم، وثابتا بالسنة.(٩) يعنى قوله تعالى: " أُحِلَّ لَكُمْ" الآية(١٠) فقوله تعالى : "أُحِلَّ لَكُمْ" ناسخ للحكم الذى كان ثابتا بالسنة، وليس بناسخ لقوله تعالى:" كَمَا كُتِبَ ".

(١١)سورة البقرة ٢١٧ وتمام الآية:" يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيْهِ قُلْ: قِتَالٌ فِيْهِ كَبِيْرٌ؛ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَكُفْرٌ بِهٖ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ اَهْلِهٖ مِنْهُ اَكْبَرُ عِنْدَ اللّٰهِ؛ وَالْفِتْنَةُ اَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَايَزَالُوْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ حَتّٰى يَرُدُّوْكُمْ عَنْ دِيْنِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوْا" الآية.

﴿وَقَاتِلُوْا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً﴾ الآية[1] اخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة، قلت: هذه الآية لا تدل على تحريم القتال، بل تدل على تجويزه، وهى من قبيل تسليم العلة وإظهار المانع؛ فالمعنى: أن القتال فى الشهر الحرام كبير شديد، ولكن الفتنةَ أشدُّ منه، فجاز فى مقابلتها؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياقها، كما لايخفى.

٥ ـ قوله تعالى:﴿وَالَّذِيْنَ يُتَوَفَّوْنَ ـــ إلى قوله ـــ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾الآية[2] منسوخة بآية:﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَّعَشْرًا﴾[3]والوصيةُ منسوخة بالميراث؛ والسكنى ثابتة عند قوم، منسوخة عند آخرين بحديث :" ولاسكنى"[4].

قلت:هى كما قال منسوخة عند جمهور المفسرين؛ ويمكن أن يقال: يستحب أو يجوز للميت الوصية، ولايجب على المرأة أن تسكن فى وصيته؛ وعليه ابن عباس ؛ وهذا التوجيه ظاهر من الآية.

٦ ـ قوله تعالى:﴿وَإِنْ تُبْدُوْا مَا فِيْ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ﴾ الآية[5] منسوخة بقوله بعده:﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[6]

قلت:هومن باب تخصيص العام: بينت الآية المتأخرة أن المراد مافى أنفسكم من الإخلاص والنفاق، لامن أحاديث النفس التى لا اختيار فيها، فإن

---

(١) سورة التوبة ٣٦ والآية بتمامها: " إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُوْرِ عِنْدَ اللّٰهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِيْ كِتَابِ اللّٰهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ذٰلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوْا فِيْهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوْا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُوْنَكُمْ كَافَّةً، وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِيْنَ.

(٢) سورة البقرة ٢٤٠ والآية بتمامها: " والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُوْنَ أَزْوَاجًا وَّصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إلى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ؛ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا فَعَلْنَ فِيْ أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوْفٍ ؛ وَاللّٰهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ"

(٣) سورة البقرة ٢٣٤ والآية بتمامها: "وَالَّذِيْنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُوْنَ أَزْوَاجًا يَّتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَّعَشْرًا ؛ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا فَعَلْنَ فِيْ أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوْفِ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ"

(٤)لم أجد هذا اللفظ فى حديث مرفوع ، إنماهو قول عطاء فى البخارى (٢: ٨٠٤)

(٥)سورة البقرة ٢٨٤ (٦) سورة البقرة ٢٨٦.

التكليف لايكون إلا فيما هو في وُسْع الإنسان.

ومن آل عمران:

٧ ـ قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[١] قيل: إنه منسوخة بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَااسْتَطَعْتُمْ﴾[٢] وقيل: لا، بل هو محكم.

وليس فيها آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية.

قلت: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ في الشرك والكفر وما يرجع إلى الاعتقاد، ﴿وَمَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ في الأعمال: من لم يستطع الوضوء يتيمم، ومن لم يستطع القيام يصلى قاعداً؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياق الآية، وهو قوله: ﴿وَلاتَمُوْتُنَّ إِلَّاوَاَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ﴾.

ومن النساء

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ الآية [٣] منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾[٤]

قلت: ظاهر الآية أن الميراث للموالى[٥] والبر والصلة لمولى الموالاة[٦] فلا نسخ.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية[٧] قيل منسوخة[٨] وقيل: لا، ولكن تهاون الناس في العمل بها.

قلت: قال ابن عباس: هي محكمة، والأمر للاستحباب [٩] وهذا أظهر.

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿ والَّتِيْ يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ﴾ الآية[١٠] منسوخة بآية النور[١١]

(١) سورة آل عمران ١٠٢ (٢) سورة التغابن ١٦ (٣) سورة النساء ٣٣ (٤) سورة الأنفال ٧٥ وسورة الأحزاب ٦ (٥) جمع المولى بمعنى القريب اى الميراث للأقرباء (٦) إذا أسلم رجل على يدرجل، وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح، وهو مولى الموالاة (٧) سورة النساء ٨ والآية بتمامها: "وَإِذَاحَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبىٰ وَالْيَتَامىٰ وَالْمَسَاكِيْنُ فَارْزُقُوْهُمْ مِنه، وَقُوْلُوْا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوْفًا" (٨) أى بآيات المواريث. (٩) الصحيح للبخارى ص ٣٨٦ وص ٦٥٨ (١٠) سورة النساء ١٥ والآية بتمامها: وَالَّتِيْ يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوْا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ، فَإِنْ شَهِدُوْا فَامْسِكُوْهُنَّ فِي الْبُيُوْتِ حَتّٰى يَتَوَفّٰهُنَّ الْمَوْتُ اَوْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيْلاً. (١١) اى بآية الجلد، وهى قوله تعالى: " الزَّانِيَةُ وَالزَّانِىْ فَاجْلِدُوْا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ الآية (سورة النور ٢)

قلت: لانسخ فی ذلك ،بل هو ممتد إلی الغاية ،فلما جاء ت الغاية بین النبی صلی الله علیه وسلم أن السبیل الموعود كذا وكذا[1] فلانسخ.

ومن المائدة

١١- قوله تعالی: ﴿وَلاَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الآية[2] منسوخة بإباحة القتال فيه.

قلت: لانجد فی القرآن ناسخا له ، ولافی السنة الصحيحة؛ ولكن المعنی: أن القتالَ المحرَّم يكون فی الشهر الحرام أشدُّ تغليظا ، كما قال النبی صلی الله عليه وسلم فی الخطبة:" إن دمائكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا فی شهركم هذا، فی بلدكم هذا"[3]

١٢- قوله تعالی: ﴿فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ، اَوْ أَعْرِضْ عَنهُمْ﴾الآية[4] منسوخة بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ﴾[5].

قلت: معناه: إن اخترت الحُكْمَ فَاحْكُمْ بِمَا اَنْزَلَ اللّٰهُ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَائَهُمْ؛ فالحاصل.أنه لنا أن نترك أهل الذمة أن يرفعوا القضية إلی زعمائهم، فيكحموا بما عندهم، ولنا أن نحكم بما أنزل الله علينا.

١٣- قوله تعالی: ﴿اَوْآخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾[6] منسوخ بقوله: ﴿وَأَشْهِدُوْا ذَوَیْ

---

(١)رواه مسلم، مشكوة كتاب الحدود، الفصل الأول ، رقم الحديث ٣٥٥٨. (٢)سورة المائدة ٢ وتمام الآية :" يٰاَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَتُحِلُّوْا شَعَائِرَ اللّٰهِ وَلاَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْیَ وَلاالْقَلاَئِدَ ، وَلاَ آمِّيْنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُوْنَ فَضْلاً مِّنْ رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا"(٣)رواه البخاری فی صحيحه (١: ٢٣٤)(٤) سورة المائدة ٤٢ وتمام الآية: " وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَّضُرُّوْكَ شَيْئًا، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنَ" (٥)سورة المائده ٤٩ وتمام الآية:"وَلاَ تَتَّبِعْ اَهْوَاءَ هُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ اَنْ يَّفْتِنُوْكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيْدُ اللّٰهُ اَنْ يُّصِيْبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوْبِهِمْ ،وَإِنَّ كَثِيْرًا مِّنَ النَّاسِ لَفٰسِقُوْنَ".(٦) سورة المائدة ١٠٦ والآية بتمامها: " يٰاَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ اَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِيْنَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ، اَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ، إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ فَاَصَابَتْكُمْ مُصِيْبَةُ الْمَوْتِ؛ تَحْبِسُوْنَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلٰوةِ فَيُقْسِمٰنِ بِاللّٰهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَنَشْتَرِیْ بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبیٰ ، وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّٰهِ ، إِنَّاإِذًا لَّمِنَ الْآثِمِيْنَ".

عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[1].

قلت: قال أحمد بظاهر الآية[2] ومعناها عند غيره: أو آخران من غير أقاربكم، فيكونانِ من سائر المسلمين.

ومن الأنفال:

١٤- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرُوْنَ صَابِرُوْنَ﴾ الآية[3] منسوخة بالآية بعدها[4].

قلت: هي كما قال منسوخة.

ومن البراءة

١٥- قوله تعالى: ﴿إِنْفِرُوْا خِفَافًا وَّثِقَالاً﴾[5] منسوخة بآيات العذر، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمىٰ حَرَجٌ﴾ الآية[6] وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ الآيتين،[7] وبقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُوْنَ لِيَنْفِرُوْا كَافَّةً﴾[8]

قلت: خفافا أى مع أقل مايَتأتّى به الجهادُ من مركوب وعبدللخدمة، ونفقة يقنع بها؛ وثقالاً أى مع الخَدَم الكثيرين، والمراكب الكثيرة، فلا نسخ؛ أو نقول: ليس النسخ متعينا[9]

---

(١) سورة الطلاق ٢ والآية بتمامها: "فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوْهُنَّ بِمَعْرُوْفٍ أَوْ فَارِقُوْهُنَّ بِمَعْرُوْفٍ، وَأَشْهِدُوْا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنْكُمْ، وَأَقِيْمُوْا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ، ذٰلِكُمْ يُوْعَظُ بِهٖ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. وَمَنْ يَّتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَّهٗ مَخْرَجًا" (٢) أى يجوز عند احمد رحمه الله فى أرض الغربة إذا لم يجد مسلمين أن يشهد كافرين. (٣) سورة الأنفال ٦٥ وتمام الآية: " يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرُوْنَ صَابِرُوْنَ يَغْلِبُوْا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ مِّائَةٌ يَّغْلِبُوْا أَلْفًا مِّنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّيَفْقَهُوْنَ" (٤) وهى قوله تعالى: اَلْئٰنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيْكُمْ ضَعْفًا، فَإِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَّغْلِبُوْا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَّغْلِبُوْا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّٰهِ، وَاللّٰهُ مَعَ الصَّابِرِيْنَ" (سورة الأنفال ٦٦) (٥) سورة البراءة ٤١ وتمام الآية: " وَجَاهِدُوْا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ، ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ" (٦) سورة الفتح ٧ (٧) سورة التوبة ٩١ و ٩٢ (٨) سورة التوبة ١٢٢ (٩) بل يجب عليه العمل عند هجوم العدو.

ومن النور

١٦- قوله تعالى: ﴿الزَّانِىْ لاَيَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً ﴾ الآية [١] منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوْا الأَيَامىٰ مِنْكُمْ﴾[٢].

قلت: قال أحمد بظاهر الآية؛ ومعناها عند غيره: أن مرتكب الكبيرة[٣] ليس بكفءٍ إلا للزانية؛ أو لايستحب له[٤] اختيار الزانية؛ وقوله: ﴿وَحُرِّمَ ذٰلِكَ﴾ إشارة إلى الزنا والشرك، فلا نسخ، وأما قوله: ﴿وَأَنْكِحُوْا الأَيَامىٰ﴾ فعامٌّ، لاينسخ الخاص.

١٧- قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِيْنَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الآية[٥] قيل: منسوخة، وقيل: لا ،ولكن تهاون الناس فى العمل بها.

قلت: مذهب ابن عباس رضى الله عنه: أنها ليست بمنسوخة؛ وهذا أوجه وأولى بالاعتماد.

ومن الأحزاب

١٨- قوله تعالى: ﴿ لاَيَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ الآية[٦] منسوخة بقوله تعالى:

---

(١) سورة النور ٣ والآية بتمامها: "الزَّانِىْ لاَيَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لاَيَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ "(٢)سورة النور ٣٢ والآية بتمامها:" وَأَنْكِحُوْا الأَيَامىٰ مِنْكُمْ وَالصّٰلِحِيْنَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ يَّكُوْنُوْا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ"(٣)يعنى الوقاح والزنا (٤) اى للمسلم العفيف (٥)سورة النور ٥٨ والآية بتمامها:"يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِيْنَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِيْنَ لَمْ يَبْلُغُوْا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلٰثَ مَرّٰتٍ: مِنْ قَبْلِ صَلٰوةِ الْفَجْرِ، وَحِيْنَ تَضَعُوْنَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيْرَةِ، وَمِنْ بَعْدِ صَلٰوةِ الْعِشَاءِ ،ثَلٰثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوّٰافُوْنَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ،كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الآيٰتِ وَاللّٰه عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ"(٦)سورة الأحزاب ٥٢ وتمام الآية :" لاَيَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ،وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ، إِلاَّ مَامَلَكَتْ يَمِيْنُكَ ، وَكَانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيْبًا".

﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ الآية[1].

قلت: يحتمل أن يكون الناسخ مقدما في التلاوة، وهو الأظهر عندي.

ومن المجادلة

١٩ـ قوله تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُوْلَ فَقَدِّمُوْا﴾ الآية[2] منسوخة بالآية بعدها[3]

قلت: هذا كما قال.

ومن الممتحنة

٢٠- قوله تعالى: ﴿فَآتُوْا الَّذِيْنَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوْا﴾[4] قيل: منسوخ باية السيف[5]، وقيل: بآية الغنيمة[6] وقيل: محكم.

قلت: الأظهر أنها محكمة، ولكن الحكم في المهادنة[7] وعند قوة الكفار.

---

(١) سورة الأحزاب ٥٠ وتمام الآية: "يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِيْ آتَيْتَ أُجُوْرَهُنَّ وَمَامَلَكَتْ يَمِيْنُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللّٰهُ عَلَيْكَ، وَبَنٰتِ عَمِّكَ وَبَنٰتِ عَمّٰتِكَ وبَنٰتِ خَالِكَ وَبَنٰتِ خٰلٰتِكَ الّٰتِيْ هَاجَرْنَ مَعَكَ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَّهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ ؛ قَدْ عَلِمْنَا مَافَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيْ أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ كَيْلاَ يَكُوْنَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ؛ وَكَانَ اللّٰهُ غَفُوْرًا رَّحِيْمًا. (٢) سورة المجادلة ١٢ والآية بتمامها: " يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُوْلَ فَقَدِّمُوْا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰكُمْ صَدَقَةً؛ ذٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَر؛ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوْا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ. (٣) وهي قوله تعالى: " أَءَ شْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوْا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقٰت؛ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوْا وَتَابَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيْمُوْا الصَّلٰوة وَآتُوْا الزَّكَاةَ وَأَطِيْعُوْا اللّٰهَ وَرَسُوْلَهُ، وَاللّٰهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ (المجادلة ١٣) (٤) سورة الممتحنة ١١ وتمام الآية: " وإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوْا الَّذِيْنَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَاأَنْفَقُوْا، واتَّقُوْا اللّٰهَ الَّذِىْ أَنْتُمْ بِه مُؤْمِنُوْنَ" (٥) يعني باية السيف قوله تعالى: وَقَاتِلُوْا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُوْنَكُمْ كَافَّة (التوبة ٣٦) (٦) يعني بآية الغنيمة قوله تعالى: "وَاعْلَمُوْا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُوْلِ وَلِذِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتٰمٰى والْمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ "الآية (الانفال ٤١) (٧) المهادنة: المصالحة، هَادَنَه مهادنة: صالحه ووَادَعَه.

ومن المزمل:

٢١ـ قوله تعالى﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيْلاً ﴾[١] منسوخ باخر السورة ،[٢] ثم نُسخ الآخِر بالصلوات الخمس.

قلت: دعوى النسخ بالصلوات الخمس غير مُتَّجِهَةٍ[٣] بل الحق: أن أولَ السورة في تاكيد النُدب إلى قيام الليل، وآخِرَها في نسخ التأكيد إلى مجرد الندب.

قال السُّيوطي موافقا لابن العربي: فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة، على خلاف في بعضها؛ ولايصح دعوى النسخ في غيرها؛ والأصح في آيتَيِ الاستئذان والقسمة[٤] الإحكامُ وعدمُ النسخ، فصارت تسع عشرة آية؛ وعلى ما حرَّرنا لايتعين النسخ إلا في خمس آيات[٥].

الفصل الثالث

في

معرفة أسباب النزول

ومن المواضع الصَّعبة أيضًا معرفة أسباب النزول؛ ووجهُ الصُّعوبة أيضًا اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين.

معنى: " نَزَلَتْ في كذا" عند المتقدمين

والذى يظهر من استقراء كلام الصحابة والتابعين رضى الله عنهم: أنهم كانوا لايستعملون:" نزلتْ في كذا" لمجرد بيان الحادث الذى وقع في زمنه صلى الله عليه وسلم، وكان سببا لنزول الآية ؛بل:

●وربما يذكرون بعضَ ماصدقتْ عليه الآية، مماحدث في زمنه صلى الله عليه

(١)سورة المزمل ٢(٢) اى بقوله تعالى:"عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوْه فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُ وْا مَاتَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ(المزمل٢٠) (٣) غير متجهة اى غير موجَّهٍ(٤) آية الاستئذان هى الآية السابعة عشر، وآية القسمة هى الآية التاسعة (٥) وهى الآية الأولى، والخامسة، والرابعة عشرة، والثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

وسلم، أوحدث بعده صلى الله عليه وسلم،فيقولون:"نَزَلَتْ فِيْ كَذَا"؛ ولايلزم في هذه الصورة انطباق جميع القيود المذكورة في الآية، بل يكفي انطباق أصل الحكم فحسب.

●وقد يُبينون سؤالاً سُئل عنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، أو حادثةً حدثت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، واستنبط صلى الله عليه وسلم حكمها من الآية وتلاها عليهم في ذلك الباب، فيقولون: " نزلت في كذا" ؛ وربما يقولون في هذه الصُّوَرِ "فأنزل الله تعالى قوله كذا" أو " فنزلتْ".

وكأنّه إشارة إلى أن استنباطَه صلى الله عليه وسلم ذلك الحكمَ من الآية،وإلقاؤها في تلك الساعة في خاطره المبارك أيضًا نوعٌ من الوحي والنَّفْث في الرُّوْع ،فلذلك يمكن أن يقال:" فأُنزلتْ" ؛ولو عبَّر أحد عن ذلك بتكرار نزول الآية لكان له مساغ أيضاً.

روايات المحدثين التي لاعَلاقة لها بأسباب النزول:

ويذكر المحدثون تحت آيات القرآن الكريم كثيرًا من الأشياء، ليست هي في الحقيقة من قسم سبب النزول، مثلُ: استشهادِ الصحابة رضي الله عنهم في مناظراتهم[1] بآية، أو تمثُّلِهم بها[2]،أوتلاوتِه صلى الله عليه وسلم آيةً للاستشهاد في كلامه الشريف،أو رواية حديث يوافق الآية في أصل الغرض ، أو تعيين موضع النزول ، أوتعيين أسماء المذكورين في الآية بطريق الإبهام، أو بيانِ طريق التلفظ بكلمة قرآنية، أو فضل سُور وآيات من القرآن ، أو بيان طريقة امتثاله صلى الله عليه وسلم بأمر من أوامر القرآن الكريم ؛ فليس شيْ من هذا في الحقيقة من أسباب النزول، وليس من شروط المفسر الإحاطة بها.

شرط المفسر في باب أسباب النزول:

إنما شرط المفسر معرفة أمرين:

---

(١)المناظرة: المباحثة العلمية(٢) تمثل بالشيْ: ضربه مثلاً.

الأول : معرفة تلك القِصص التى تعرّض[1] الآيات لها؛ فإنه لايتيسرفهم إيماء الآيات الإبمعرفتها.

والثاني: معرفة تلك القصة التى تخصّص العامَّ، أو نحوُ ذلك من وجوه صرفِ الكلام عن الظاهر؛ فإنه لايتأتى فهمُ المقصود من الآيات بدونها.

قِصَص الأنبياء من روايات أهل الكتاب

ومما ينبغى أن يُعلم هنا: أن قصص الأنبياء السابقين لم تُذكر فى الأحاديث إلا قليلاً؛ فالقِصص الطويلةالعريضة التى يتجشم[2] المفسرون روايتها، كلُّها منقولة عن علماء أهل الكتاب إلا ما شاء اللّه تعالى[3]، وقد جاء فى صحيح البخارى مرفوعًا: "لاتصدّقوا أهل الكتاب ولاتكذّبوهم"[4]

معنى آخرُلقولهم:"نزلت فى كذا"

ولْيُعْلم أيضًا أن الصحابة والتابعين رضى اللّه عنهم كانوا يذكرون قِصَصا جزئية لبيان مذاهب المشركين واليهود ، وعاداتهم الجاهلية، لتتضح بها عقائدهم وتقاليدهم ويقولون:" نزلت الآية فى كذا" ويريدون بذلك: أنها نزلت فى مثل هذه سواء كانت تلك بعينها، أو ماشابَهَهَا، أوماقاربها، ويقصدون إظهارتلك الصورة، لاخصوصَ القصص ، بل يذكرونها لأجل أن هذه صورة صادقة لتلك الأمور الكلية؛ ولهذا تختلف أقوالهم فى كثير من المواضع، وكل يَجُرُّ الكلام إلى جانبه، وقصدُهم فى الحقيقة واحد؛ وإلى هذه النكتة أشار أبو الدرداء رضى اللّه عنه حيث قال:" لايكون الرجل فقيها حتى يُحمِل الآيةَ الواحدة على محامل متعددة"[5]

صورةُ قصة ولا قصةَ لها

وعلى هذا الأسلوب كثيرًا ما يُذكر فى القرآن العظيم صورتان: صورةُ

---

(١)عرّض له بالقول: قال قولا وهو يعنيه ويريده ولكن لم يصرّح به ولم يبينه.(٢)تَجشّم الأمر:تكلّفه على مشقة(٣)كقصة موسى والخضرعليهما السلام المروية فى صحيح البخارى(٤)البخارى فى كتاب التفسير ص ٦٤٤ و١٠٩٣(٥)أخرجه ابن سعد وغيره.

سعيدٍ، ويُذكر فيها بعض أوصاف السعادة؛ وصورةُ شَقِيٍّ ، ويُذكر فيها بعض أوصاف الشقاوة؛ ويكون الغرض من ذلك: بيان أحكام تلك الأوصاف والأعمال،لاالتعريض بشخص معين،كما قال سبحانه وتعالى:﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[1]ثم ذكر صورتين: صورةَ سعيد وصورةَ شقي؛ وكذلك قوله تعالى:﴿وَإِذَاقِيْلَ لَهُمْ: مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوْا:أَسَاطِيْرُ الأَوَّلِيْنَ﴾[2]،وقوله تعالى:﴿وَقِيْلَ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا : مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوْا : خَيْرًا ﴾[3].

وعلى مثل هذا تُحمل قوله تعالى:﴿وَضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً: قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾[4]وقوله تعالى:﴿هُوَالَّذِىْ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَّاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، فَلَمَا تَغَشَّاهَا﴾الأية[5] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ، الَّذِيْنَ هُمْ فِيْ صَلوٰتِهِمْ خَاشِعُوْنَ﴾[6]وقوله تعالى:﴿وَلاتُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِيْنٍ﴾[7].

ولايلزم في هذه الصور أن تتوفّر تلك الخصوصياتُ بعينها في شخص، كمالا يلزم في قوله تعالى:﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، فِيْ كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾[8]أن توجد حبّة بهذه الصفة؛ إنما المقصود: تصوير زيادة الأجر لاغير؛ فإن وُجدت صورة توافق ذلك في أكثر الخصوصيات، أو في كلها، كان ذلك من قبيل : " لزوم مالم يَلْتزم" [9].

قد يَفْرُضون السؤال والجواب في التفسير:

وفي بعض الأحيان يَرُدُّ في القرآن على شبهة ظاهرة الورود، أو يجاب عن سؤال مَطْوِيٍّ مفهومٍ بسهولة ، لقصد إيضاح الكلام السابق، لا لأجل أن

---

(١)سورة الأحقاف ١٥(٢) سورة النحل ٢٤(٣) سورة النحل ٣٠(٤) سورة النحل ١١٢(٥) سورة الأعراف ١٨٩(٦)سورة المؤمنون ١ و٢ (٧) سورة القلم ١٠(٨) سورة البقرة ٢٦١ (٩) التزم الشئ : أوجبه على نفسه ولزِم الشئ: ثبت ودام فمعنى قوله: " لزوم مالم يَلْتزم" : جوچاہا نہیں تھاوہ ہوگیا،یعنی ہم خرماہم ثواب!

أحدًا وجَّه هذا السؤالَ بعينه، أوأورد هذه الشبهة بعينها؛ وكثيرا ما يفترض[1] الصحابة رضى الله عنهم فى تقرير ذلك المقام سؤالاً ويشرحون الكلام فى صورة السؤال والجواب؛ ولكن لونظرنا بإمعان النظر فالكل كلام واحد منسَّق، لايحتمل نزول بعضٍ عقيب بعض، وجملةٌواحدة منتظِمة[2]لاتُنْفَكُّ قيودها على أصل من الأصول.

قد يريدون التقدم والتأخرالرُّتْبى لاالزمانى

وقد يذكر الصحابة رضى الله عنهم التقدُّم والتاخر، ويريدون بذلك: التقدم والتأخر الرُّتبى، لا الزمانى،كما قال ابن عمر رضى الله عنه فى قوله تعالى:﴿والَّذِيْنَ يَكْنِزُوْنَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ﴾[3]:"إنماكان هذا قبل أن تُنْزَل الزكوةُ، فلما أُنزلت جعلها الله طُهراً للأموال"[4]؛ومن المعلوم أن سورة البراء ة آخرسورة نزلت، وهذه الآية فى تضاعيف القِصَصِ المتاخرة، وقد كانت فرضية الزكاة متقدمة عليها بأعوام؛ ولكن مراد ابن عمر رضى الله عنه: تقدم الإجمال على التفصيل بالرتبة.

شرط المفسر أمران:

وبالجملة: فالذى يشترط على المفسر فى هذا الباب لايزيد على أمرين:

الأول: معرفة قصص الغزوات وغيرها، مماوقع فى الآيات الإيماءُ إلى خصوصياتها،فمالم تُعلم تلك القصص لايتأتى فهمُ حقيقتها.

والثانى:الاطلاع على فوائد بعض القيود؛ وكذا أسبابُ التشديدفى بعض المواضع، تتوقف معرفتها على أسباب النزول.

فن التوجيه:

وهذا المبحث الأخير[5]فى الحقيقة فن من فنون التوجيه؛ ومعنى التوجيه:

(١)افترض الباحثُ: اتَّخذ فرضًا لِيصل إلى حَلّ مسئلة(فرض كرنا)(٢) انتظم الشئُ: تألَّف واتَّسق.(٣) سورة التوبة ٣٤.(٤) رواه البخارى فى كتاب الزكاة وفى كتاب التفسير رقم الحديث ١٤٠٤ و ٤٦٦١ (٥) يعنى مبحث ما يحتاج إليه المفسر.

بيان وجه الكلام؛ وحاصل هذه الكلمة : أنه:

- قد تقع في الآية شبهة ظاهرة، لاستبعاد الصورة التى هى مدلول الآية، أو للتناقض بين الآيتين.
- أو يصعب فهمُ مدلول الآية على ذهن المبتدئ.
- أو لاتستقر فى ذهنه فائدةُ قيد من القيود.

فإذا قام المفسر بحل هذه الإشكالات سمى ذلك توجيها.

أمثلة التوجيه:

١-كما فى آية:﴿يأُخْتَ هَارُوْن﴾[١]فقد سألوا: أن المدة بين موسى وعيسى عليهما السلام طويلة، فكيف يكون هارونُ أخالمريم؟ كأن السائل أضمر فى خاطره: أن هارون هذا هوهارون أخو موسى عليهما السلام؛فأجاب صلى الله عليه وسلم بأن بنى إسرائيل كانوا يسمون بأسماء الصالحين قبلهم[٢].

٢ـ وكما سألوا: كيف يمشى الإنسان يوم الحشر على وجهه؟ فقال: "إن الذى أمشاه فى الدنيا على رجليه لقادر على أن يمشيه على وجهه"[٣].

٣ـ وكما سألوا ابن عباس رضى الله عنهما عن وجه التطبيق بين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ فَلاَ اَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَيَتَسَاءَ لُوْنَ﴾[٤] وبين آية أخرى: ﴿وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَسَاءَ لُوْنَ﴾[٥] فقال رضى الله عنه: عدم التساؤل يوم الحشر، والتساؤل بعد دخول الجنة[٦]

٤ـ وكما سألوا عائشة رضى الله عنها، فقالوا: إن كان السعى بين الصفا والمروة واجبا، فلما ذا قال الله تعالى:﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ الآية[٧]؟ فأجابت رضى الله عنها: بأن قوما كانوا يتجنبونه ويتحرجون منه،

---

(١) سورة مريم ٢٨(٢) رواه الترمذى (٢: ١٤٤) فى أبواب التفسير،فى تفسير سورة مريم(٣) رواه الشيخان ، مشكوة ح ٥٥٣٧.(٤)سورة المؤمنون ١٠١ (٥) سورة الصافات ٢٧ (٦)أخرجه الحاكم وابن جرير كما فى الدر المنثور(٥: ١٥)(٧) سورة البقرة ١٥٨.

فلذلك قال الله تعالى: ﴿لاجُنَاحَ﴾[1]

٥ ـ وكما سأل عمر رضى الله عنه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: ما معنى قيدِ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾[2]فقال صلى الله عليه وسلم: صدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته"[3] أى أن الكرماء لايضايقون فى الصدقة، فكذلك لم يذكر الله سبحانه وتعالى هذا القيد للتضييق، بل القيد إتفاقى.

وأمثلة التوجيه كثيرة، والغرض هُنا التنبيه على معناه.

يذكرأسباب النزول وتوجيه المشكل فى فتح الخبير لفائدتين

وأرى من المناسب أن أذكر فى الباب الخامس ما نقل البخارى والترمذى والحاكم فى تفاسيرهم من أسباب النزول وتوجيه المشكل، بسند جيد إلى الصحابة رضى الله عنهم، أو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع التنقيح والاختصار لفائدتين:

الأولى: أن استحضار هذا القدر من الآثار لابد منه للمفسر، كما لابدله من حفظ القدر الذى ذكرناه فى ذلك الباب من شرح غريب القرآن.

والثانية: أن يُعلم أنه لادخل لأكثر مايُروى من أسباب النزول فى فهم معانى الآيات الكريمة، اللهم إلاشئ قليل من القصص التى ذكرت فى هذه التفاسير الثلاثة التى هى أصح التفاسير عند المحدثين.

إفراط ابن اسحاق والواقدى والكلبى

وأماإفراط محمد بن إسحاق[4] والواقدى[5] والكلبى[6] وما ذكروا تحت

---

(١) رواه مسلم (فتح الملهم ٣. ٣٢٤)(٢) سورة النساء ١٠١ (٣) رواه مسلم(فتح الملهم ٢: ٢٥٠)(٤) هو محمد بن إسحاق المطلبى المدنى: من أقدم مؤرخى العرب، توفى سنة ١٥١هـ (٥) هو محمد بن عمر الواقدى المدنى: من أقدم مؤرخى الإسلام واشهرهم، ولد سنة ١٣٠ هـ وتوفى ببغداد سنة ٢٠٧هـ (٦) هو محمد بن السائب الكلبى: نسّابة، راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، توفى بالكوفة سنة ١٤٦هـ.

كل آية من قصة، فأكثره غير صحيح عندالمحدثين، وفي إسناده نظر[1]؛ ومن الخطأ البيّن: أن يُعدَّ ذلك من شروط التفسير؛ ومن يرى أن تدبر كتاب الله يتوقف على الإحاطة بها، فقد فات حظه من كتاب الله، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

الفصل الرابع
في
بقية مباحث هذا الباب

مما يوجب الخفاء: حذف بعض الأجزاء، أو أدوات الكلام، وإبدال شيْ بشيء، وتقديم ماحقُّه التأخير، وتأخيرماحقُّه التقديم، واستعمالُ المتشابهات والتعريضات والكنايات، لاسِيَّما تصويرالمعنى المراد بالصورة المحسوسة التي تكون من لوازم ذلك المعنى عادة[2] واستعمالُ الاستعارةالمكنيَّة، والمجاز العقلي: فلنذكر شنيا من الأمثلة لهذه الأشياء باختصار، لتكون على بصيرة

بيان الحذف

أما الحذف فعلى أقسام: حذف المضاف والموصوف والمتعلّق وغير ذلك، مثلُ:

● قوله تعالى: ﴿وَلٰكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ﴾[3] أي برِّ من آمن.

●وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُوْدَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[4] أي آية مبصرة، لأنها مبصِرة، غير عمياء.

●وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوْا فِي قُلُوْبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[5] أي حب العجل.

---

(١)الضمير في قوله."أكثره" وكذا في:" إسناده " يرجعان إلى كلمة "ما" في قوله "ما ذكروا" (٢)وهذا أيضا من باب الكنايات. (٣) البقرة ١١٧ وفيه حذف المضاف (٤) سورة بني إسرائيل ٥٩ وفيه حذف الموصوف (٥) سورة البقرة ٩٣ وفيه حذف المضاف.

●وقوله تعالى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾[1] اى بغير قتل نفس.

●وقوله تعالى: ﴿أَوْ فَسَادٍ﴾[2]أى بغير فساد.

●وقوله تعالى: ﴿مَنْ فِيْ السَّمٰوٰاتِ والأَرْضِ ﴾[3]أى من فى السماوات ومن فى الارض ؛ لا أن شيئا واحدًا هو فى السماوات والأرض.

●وقوله تعالى: ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾[4]أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

●وقوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[5] أى أهل القرية.

●وقوله تعالى: ﴿بَدَّلُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْرًا﴾[6]أى فعلوامكان شكر نعمة اللّٰه كفرًا.

●وقوله تعالى: ﴿ يَهْدِيْ لِلَّتِيْ هِيَ اَقْوَمُ﴾[7]أى للخصلة التى هى أقوم.

●وقوله تعالى: ﴿بِالَّتِيْ هِيَ اَحْسَنُ ﴾[8]أى بالخصلة التى هى أحسن.

●وقوله تعالى: ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنىٰ﴾[9]أى الكلمة الحسنى والعِدَة الحسنى[10]

●وقوله تعالى: ﴿عَلىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[11]أى على عهد ملك سليمان.

●وقوله تعالى: ﴿ وَعَدْ تَّنَا عَلىٰ رُسُلِكَ﴾[12] أى على ألسنة رسلك.

●وقوله تعالى: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[13] أى أنزلنا القرآن، وإن لم يسبق له ذكر .

---

(١) سورة الكهف ٧٤ وفيه حذف المضاف(٢) سورة المائدة ٣٢ وفيه حذف المضاف ، وهو الجار والمجرور (٣) جاء فى التنزيل فى تسعة مواضع ، كما فى سورة الرحمن ٢٩ وفيه حذف الموصول .(٤)سورة بنى إسرائيل ٧٥ وفيه حذف المضاف (٥) سورة يوسف٨٢ وفيه حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه (٦) سورة إبراهيم ٢٨ وفيه حذف المضاف والمضاف إليه معًا (٧) سورة بنى إسرائيل ٩ وفيه حذف الموصوف (٨)سورة فصّلت ٣٤ وفيه حذف الموصوف (٩) سورة الأنبياء ١٠١ وفيه حذف الموصوف(١٠) العدة مصدر وَعَدَ (١١) سورة البقرة ١٠٢ وفيه حذف المضاف الأول.(١٢)سورة آل عمران ١٩٤ وفيه أيضًاحذف المضاف الأول .(١٣) سورة القدر ١ وفيه حذف مرجع الضمير.

●وقوله تعالى: ﴿ حَتّٰى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾[1] اى توارت الشمس.

●وقوله تعالى: ﴿ وَمَايُلَقَّاهَا ﴾[2] اى خصلة الصبر.

●وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوْتَ﴾[3] ـــ فيمن قرأ بالنصب ـــ أى جعل منهم من عبد الطاغوت.

●وقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَّصِهْرًا ﴾[4] إى جعل له نسبًا وصهرًا.

●وقوله تعالى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوْسىٰ قَوْمَهُ ﴾[5] اى من قومه.

●وقوله تعالى: ﴿أَلاَ اِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾[6] اى كفروا نعمة ربهم، أو: كفروا بربهم، بنزع الخافض.

●وقوله تعالى: ﴿تَفْتَؤُا﴾[7] اى لا تفتؤ، ومعناه: لاتزال.

●وقوله تعالى: ﴿مَانَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللّٰهِ زُلْفٰى﴾[8] اى يقولون: ما نعبدهم.

●وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا الْعِجْلَ ﴾[9] اى الذين اتخذوا العجل إلٰها.

●وقوله تعالى: ﴿تَاْتُوْنَنَاعَنِ الْيَمِيْنِ﴾[10] اى وعن الشمال.

●وقوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُوْنَ، إِنَّا لَمُغْرَمُوْنَ﴾[11] اى تقولون: إنا لمغرمون.

● وقوله تعالى: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَامِنْكُمْ مَلاَئِكَةً ﴾[12] اى بدلا منكم.

●وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾[13] اى امض.

---

(١)سورة صٓ ٣٢ وفيه حذف مرجع الضمير. (٢)سورة فُصِّلَتْ ٣٥ وفيه حذف مرجع الضمير (٣) سورة المائدة ٦٠ وفيه حذف الموصول(٤) سورة الفرقان ٥٤ وفيه حذف الجار ثم إيصال الفعل إلى المجرور(٥) سورة الأعراف ١٥٥ وفيه أيضا حذف الجار، ثم الإيصال. (٦) سورة هود ٦٠ وفيه إما حذف المضاف الأول، وإما حذف الجار، ثم الإيصال(٧) سورة يوسف ٨٥ وفيه حذف الحرف (٨) سورة الزمر ٣ وفيه حذف القول (٩) سورة الأعراف ١٥٢ وفيه حذف المفعول الثانى. (١٠)سورة الصافات ٢٨وفيه حذف بعض أجزاء الجملة (١١) سورة الواقعة ٦٥ و٦٦ وفيه حذف القول(١٢) سورة الزخرف ٦٠ وفيه حذف المضاف (١٣) سورة الأنفال ٥وفيه حذف الفعل.

حذف خبر إنّ والجزاء والمفعول والمبتدأوماشابههَا مُطَّرِد.

وليُعلم أن حذف خبر" إن" أوحذف جزاء الشرط، أو مفعول الفعل، أو مبتدأ الجملة، وماأشبه ذلك مطّرد[1] في القرآن الكريم إذا كان فيما بعدَه دلالة على حذفه، نَحْوُ:

● قوله تعالى: ﴿فلوْ شاء لَهدَاكُمْ أجْمعِيْنَ﴾[2] أى لو شاء هدايتكم لهداكم.

●وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ﴾[3] أى هذا الحق من ربك.

●وقوله تعالى: ﴿لايَسْتوِىْ منكُمْ مَنْ أنفقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُوْلئِكَ أعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِيْن أنفقُوْا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوْا﴾ أى لا يستوى من أنفق من قبل الفتح ومن أنفق من بعد الفتح. فحذف الثانى لدلالة قوله: ﴿أُوْلئِكَ أعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِيْن أنفقُوْا مِنْ بَعْدُ﴾[4].

●وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ اتَّقُوْا مابَيْنَ أيْدِيْكُمْ وَمَا خَلفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ: وَمَا تَأْتِيْهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلاَّ كَانُوْا عَنْهَا مُعْرِضِيْنَ﴾[5] أى إذا قيل لهم: اتقوا مابين أيديكم وماخلفكم أعرضوا.

لاحاجة إلى تفتيش العامل فى كلمة " إذ"

وليعلم أيضا: أن الأصل فى مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ﴾[6] وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوْسٰى﴾[7] أن تكون كلمة "إذ" ظرفا لفعل من الأفعال، ولكنها نُقلت ههنا إلى معنى التخويف والتهويل، كمثل الذى يذكر المواضع الهائلة أو

(١) مطرد أى عام لاشذوذ فيه. (٢) سورة الأنعام ١٤٩ وفيه حذف المفعول (٣) سورة البقرة ١٤٧ وفيه حذف المبتدأ (٤) سورة الحديد ١٠ وفيه حذف بعض أجزاء الجملة؛ والآية بتمامها: " وَمَا لَكُمْ ألاَّ تُنْفِقُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَلِلّٰهِ مِيْرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ ؟! لايَسْتَوِىْ مِنكُمْ منْ أنفقَ مِنْ قَبْلِ الفَتحِ وَقَتَلَ؛ أُوْلئِكَ أعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِيْنَ أنْفقُوْا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا، وَكُلاًّ وَّعَدَ اللهُ الْحُسْنىٰ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْر" (٥) سورة يٰس ٤٥ و٤٦ وفيه حذف جزاء الشرط (٦) سورة البقرة ٣٠ (٧) سورة البقرة ٥٤.

الوقائع العظيمة على سبيل التعداد، من دون تركيب للجُمل، ومن غير وقوع الكلمات في حيّز الإعراب؛ بل المقصود ذكرها بأعينها، حتى ترتسم صورتها في ذهن المخاطب، ويستولي الخوف منها على قلبه.

فالتحقيق: أنه لايلزم في أمثال هذه المواضع تفتيش العامل. والله أعلم.

حذف الجار من "أنّ" مُطّرد

وليعلم أيضًا: أن حذف الجار من "أن" المصدرية مطرد في كلام العرب. والمعنى: لأن، أو: بأن.

حذف جواب "لو" الشرطية

وليعلم أيضًا: أن الأصل في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾[2]: أن يكون جواب الشرط محذوفا، إلا أنهم نقلوا هذا التركيب إلى معنى التعجب، فلاحاجة إلى تفتيش المحذوف. والله أعلم.

بيان الإبدال

أما الإبدال فإنه تصرف كثير الفنون.

إبدال فعل بفعل:

قد يذكر سبحانه وتعالى فعلا مكان فعل، لأغراض شتّى. وليس استقصاء تلك الأغراض من وظيفة هذا الكتاب، نحو:

● قوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾[3] أي يَسُبُّ آلهتكم؛ وكان أصل الكلام: أهذا الذي يسب، ولكن كره ذكر السبّ، فأبدل بالذكر.

ومن هذا القبيل ما يقال في العرف[4]: "أصيب أعداء فلان بمرض" أو:

---

(١) سورة الأنعام ٩٣ (٢) سورة البقرة ١٦٥ (٣) سورة الأنبياء ٣٦ (٤) عند مخاطبتهم سادتهم أو مكرميهم أي ينسبون الأمر إلى مايلا بسهم أو إلى متعلقيهم.

"شَرَفَنا بالمجيّ عبيدُ الحضرة" أو:" عبيدالجناب العالى مطلعون على هذه المقدمة"[1]؛ والمراد: قد مرض فلان، وقدم سعادة فلان واطلع سُمُوُّ فلان.

●وقوله تعالى: ﴿وَلَاهُمْ مِنَّا يُصْحَبُوْنَ﴾[2]أى منا لاينصرون ؛ لما كانت النصرة لاتتصور بدون الاجتماع والصحبة أبدل ينصرون بيصحبون.

● وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِيْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3]أى خفيت؛ لأن الشئ إذا خفى علمه ثقل على أهل السماوات والأرض.

●وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾[4] أى عفون لكم عن شي من طيبة أنفسهن.

إبدال اسم باسم

وقد يذكر سبحانه وتعالى اسما مكان اسم، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِيْنَ﴾[5]أى خاضعة.

●وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِيْنَ﴾[6] أى من القانتات.

●وقوله تعالى: ﴿وَمَالَهُمْ مِن نَّاصِرِيْنَ﴾[7] أى مَن ناصر.

●وقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِيْنَ﴾[8] اى حاجزًا.

●وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ﴾[9]اى أفراد بنى آدم؛ أفرد اللفظ لأنه اسم جنس.

●وقوله تعالى: ﴿يٰاَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا﴾[10]المعنى: "يابنى آدم إنكم"؛ أفرد اللفظ لانه اسم جنس.

● وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾[11] يعنى أفراد الإنسان.

---

(١)هذه كلها تعبيرات فارسية، كانوا يتكلمون بها أوبمثلها عند سادتهم وكبرائهم.

(٢)سورة الأنبياء ٤٣(٣) سورة الأعراف ١٨٧.(٤)سورة النساء ٤(٥) سورة الشعراء ٤(٦) سورة التحريم ١٢ (٧) سورة آل عمران ٢٢ (٨) سورة الحاقّة ٤٧ (٩) سورة العصر ١ و٢(١٠) سورة الانشقاق٦ (١١) سورة الأحزاب ٧٢.

●وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوْحٍ ۨ الْمُرْسَلِيْنَ﴾ [1] اى نوحًا وحده.

●وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾[2] اى إنى فتحت لك.

●وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَقَادِرُوْنَ﴾[3]اى إنى لقادر.

●وقوله تعالى: ﴿وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ﴾[4]اى يسلّط محمدًا صلى الله عليه وسلم.

● وقوله تعالى: ﴿ اَلَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾[5] اى عروة الثقفى وحده.

●وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللّٰهُ لِبَاسَ الْجُوْعِ﴾[6]اى طُعم الجوع؛ابدل الطعم باللباس إيذانا بأن الجوع له أثرمن النُحول والذبول ما يعم البدن كله ويشمله كاللباس.

●وقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللّٰهِ﴾[7] اى دين الله؛ أبدل بالصبغة إيذانا بأنه كالصبغ تتلون به النفس ؛ أو مشاكلة بقول النصارى فى المعموديّة[8].

●وقوله تعالى: ﴿ وَطُوْرِ سِيْنِيْنَ﴾[9]اى طور سَينَاء.

●وقوله تعالى: ﴿سَلٰمٌ عَلٰى إِلْ يَاسِيْنَ﴾[10]إى على إلياس؛قُلّب الاسمان للازدواج.

إبدال حرف بحرف

وقد يذكر سبحانه وتعالى حرفامكان حرف، نحو:

●قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلّٰى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾[11] اى على الجبل، كماتجلى فى المرة الأولى على الشجرة.

●وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُوْنَ ﴾[12]إى إليها سابقون.

---

(١)سورة الشعراء ١٠٥ (٢) سورة الفتح ١ (٣) سورة المعارج ٤٠ (٤)سورة الحشر ٦ (٥) سورة آل عمران ١٧٣ (٦) سورة النحل ١١٢ (٧)سورة البقرة ١٣٨ (٨)كان النصارى يصبغون أولادهم بماء أصفر، يسمونه المعمودية، يزعمون أنه الماء الذى وُلد فيه عيسى عليه السلام، ويعتقدون أنه تطهير للمولود؛ واللفظ سريانى الأصل، أو مولّد ماخوذ من العمد بمعنى البلل. (٩) سورة التين ٢ (١٠)سورة الصافات ١٣٠ والازدواج من ازدوج الكلامُ: أشبَه بعضُه بعضًا فى السّجع أو الوزن(١١) سورة الأعراف ١٤٣ (١٢) سورة المؤمنون ٦١.

●وقوله تعالى: ﴿لَايَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُوْنَ،إلاَّ مَنْ ظَلَمَ﴾[1] أى لكن من ظلم؛ فهو استيناف.

●وقوله تعالى: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِىْ جُذُوْعِ النَّخْلِ﴾[2] أى على جذوع النخل.

●وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَّسْتَمِعُوْنَ فِيْهِ﴾[3] أى يستمعون عليه.

●وقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهٖ﴾[4] إى منفطر فيه.

●وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِيْنَ بِهٖ﴾[5] اى عنه.

●وقوله تعالى: ﴿ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾[6] أى حملته العزة على الإثم.

●وقوله تعالى: ﴿فَسْئَلْ بِهٖ خَبِيْرًا﴾[7] أى فاسأل عنه.

●وقوله تعالى: ﴿لَاتَأْكُلُوْا أَمْوَالَهُمْ إِلٰى اَمْوَالِكُمْ﴾[8] أى مع أموالكم.

●وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾[9] أى مع المرافق.

●وقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللّٰهِ﴾[10] أى يشرب منها.

●وقوله تعالى: ﴿وَمَاقَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهٖ إِذْ قَالُوْا: مَاأَنْزَلَ اللّٰهُ عَلٰى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[11] أى أن قالوا.

إبدال جملة بجملة

وقد يورِد جملةً مكان جملة، مثلاً: إذا دلّت جملة على حاصل مضمون جملة أخرى، وسبب وجودها، فتبدل بتلك الجملة؛ نحو:

●قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوْهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾[12] أى إن تخالطوهم فلا بأس بذلك، لأنهم أخوانكم؛ وشان الأخ أن يخالط أخاه.

●وقوله تعالى: ﴿ لَمَثُوْبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ خَيْرٌ﴾[13] أى لوجدوا ثوابا؛ ومثوبةٌ من عند الله خير.

---

(١) سورة النمل ١٠ و١١ (٢) سورة طه ٧١ (٣) سورة الطور ٣٨ (٤) سورة المزمل ١٨. (٥) سورة المؤمنون ٦٧ (٦) سورة البقرة ٢٠٦ (٧) سورة الفرقان ٥٩ (٨) سورة النساء ٢ (٩) سورة المائدة ٦ (١٠) سورة الدهر ٦ (١١) سورة الأنعام ٩١ (١٢) سورة البقرة ٢٢٠ (١٣) سورة البقرة ١٠٣ وتمامها: " وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوْا وَاتَّقَوْا لَمَثُوْبَةٌ الآية.

●وقوله تعالى:﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[1]أى إن سرق فلا عجب، لأنه قد سرق أخ له من قبل.

●وقوله تعالى:﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيْلَ ،فَإِنَّهُ نَزَّلَه عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾[2] أى من كان عدوا لجبريل فإن اللّٰه عدوله، فإنه نزله على قلبك بإذنه؛ فعدوُّه يستحق أن يعاديه اللّٰه تعالى؛ فحذف:"فإن اللّٰه عدوٌّ له" بدليل الآية التالية، وأبدل منه: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ ﴾.

إبدال التنكير بالتعريف

وقد يقتضى أصل الكلام التنكير، فيتصرف فيه بإدخال اللام والإضافة، ويبقى المعنى على التنكير الأول، نحوُ:

●قوله تعالى:﴿وَقِيْلِهِ يَارَبِّ﴾[3]أى قيلٍ له:يارب، فأبدل بقيْلِه، لأنه أخصر فى اللفظ.

●وقوله تعالى:﴿حَقُّ الْيَقِيْنِ﴾[4]اى حقّ يقينٌ؛ اضيف ليكون أيسر فى اللفظ.

إبدال التذكيروالتأنيث والإفراد بأضدادها

وقد يقتضى سَنَنُ الكلام الطبيعى تذكيرَ الضمير، أو تأنيثه، أو إفراده، فيخرجه سبحانه وتعالى عن ذلك السنن الطبيعى، ويذكرالمؤنث مقام المذكر، وبالعكس، ويأتى بالجمع مكان المفرد، رعايةً للمعنى، نحوُ:

●قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا رَاٰى الشَّمْسَ بَازِغَةً، قَالَ: هٰذَا رَبِّىْ ، هٰذَا أَكْبَرُ﴾[5].

●وقوله تعالى:﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ﴾[6].

---

(١)سورة يوسف ٧٧.(٢) سورة البقرة ٩٧.(٣)سورة الزخرف ٨٨ بالجر معطوف على " الساعة " اى عنده تعالى علم الساعة، وعلم قول الرسول عليه السلام : يارب ! إن هؤلاء قوم لايؤمنون . والقول والقيل والقال والمقالة كلها مصادر بمعنى واحد (جَمَل)(٤) سورة الواقعة ٩٥وفيه إضافة الموصوف إلى صفته اى حق الخبر اليقين (برحق خبر)(٥)سورة الأنعام ٧٨ وهذا مثال لذكر المذكر مقام المؤنث.(٦) سورة المؤمنون ٢٨ وهذا مثال لذكر الجمع مكان المفرد.

●وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِىْ اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَ تْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّٰهُ بِنُوْرِهِمْ﴾[1]

إبدال التثنية بالمفرد

وقد يورد المفرد مكان التثنية، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوْا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ مِنْ فَضْلِه﴾[2].

●وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّىْ،وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾[3]والأصل:"فعميتا" فأفرد، لأنهما كشَىْءٍ واحدٍ؛ ومثله:أَللّٰه وَرَسُوْلُه أَعْلَمُ[4].

إبدال الشرط والجزاء وجواب القسم بجملة مستقلة

وقد تقتضى طبيعة الكلام أن يذكر الجزاء فى صورة الجزاء، والشرط فى صورة الشرط، وجواب القسم فى صورة جواب القسم، فيتصرف سبحانه وتعالى فى الكلام،ويجعل ذلك الجزء من الكلام جملة مستقلة مستأنفة، لتنتظم[5]بالمعنى ، ويقيم شيئًا يدل عليه بوجه من الوجوه، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا،وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا،والسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا، يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾[6]المعنى:البعث والحشرحق يدل عليه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾.

●وقوله تعالى: ﴿والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوْجِ والْيَوْمِ الْمَوْعُوْدِ، وَشَاهِدٍ وَّمَشْهُوْدٍ، قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُوْدِ ﴾[7]المعنى:المجازاة على الأعمال حق.

●وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ،وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ،

---

(١)سورة البقرة ١٧ أفرد الضمير فى "استوقد" مراعاة للفظ الموصول، وجَمَع فى قوله: "بِنُوْرِهِمْ" مراعاة لمعنى "الذى"(٢)سورة التوبة ٧٤ أفرد الضمير، لأن الفضل هنا بمعنى الرزق، وهو لايكون إلا من اللّٰه تعالى.(٣) سورة هود ٢٨ (٤) والأصل : أعلمان؛ وأفرد لأن علم الرسول هوما علمه اللّٰه تعالى إيَّاه، فهما كشيْ واحد.(٥) انتظم الشيءُ: تألّف واتّسق (٦) سورة النازعات ١-٦ (٧) سورة البروج ١- ٤ .

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وتَخَلَّتْ،وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ، يَاأَيها الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾[1]

المعنى :الحساب والجزاء كائن.

إبدال الخطاب بالغيبة

وقد يقلّب الله تعالى أسلوبَ الكلام ، بان يقتضى الأسلوبُ الخطابَ فيأتى بالغائب، نحو قوله تعالى:﴿حَتّٰى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيْحٍ طَيِّبَةٍ﴾[2].

إبدال الإخبار بالإنشاء وبالعكس

وقد يذكر سبحانه وتعالى الإنشاء مكان الإخبار،والإخبار مكان الإنشاء، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿فَامْشُوْا فِيْ مَنَاكِبِهَا﴾[3] أى لتمشوا.

●وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾[4] أى إيمانكم يقتضى هذا.

●وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلىٰ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ ﴾[5] المعنى: على قياس حال ابن آدم كتبنا، أو:على مثال حال ابن آدم ؛ فأبدل منه: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ﴾ لأن القياس لايكون إلا بملاحظة العلة؛ فكأن القياس نوع من التعليل.

●وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾[6]هو فى الأصل بمعنى الاستفهام ،من الرؤية، ولكن نقَل هُنا ليكون تنبيها على استماع الكلام الآتى بعده كما يقال فى العرف: ترى شَيْئًا؟ تسمع شيئًا؟

التقديم والتأخير والتعلق بالبعيد وما شابَهَهُما

وقد يوجب التقديمُ والتأخير أيضًا صعوبةً فى فهم المراد ،كما فى الشّعر

---

(١) سورة الانشقاق ١-٦(٢) سورة يونس ٢٢ والأصل :" بكم"(٣)سورة الملك ١٥ وامشواصيغة أمر وتمشوا فعلُ مضارع فأبدل الإخبار بالإنشاء (٤) سورة البقرة ٩٣.(٥) سورة المائدة ٣٢(٦) فى غير موضع كمافى أول سورة الماعون.

المشهور:

بُثَيْنَةُ شأنُها سلبتْ فؤادى بلاجرم أتيتُ به سلاما[1]

والتعلقُ بالبعيد أيضًا مما يوجب الصعوبة فى الكلام، وكذلك مايكون من هذا القبيل، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿إِلاَّ آلَ لُوْطٍ،إِنَّا لَمُنَجُّوْهُمْ أَجْمَعِيْنَ،إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾[2]أدخل الاستثناء على الاستثناء فصعُب.

●وقوله تعالى: ﴿فَمَايُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّيْنِ﴾[3]متصل بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِيْ أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ﴾

●وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوْا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾[4]أى يدعو من ضره.

●وقوله تعالى: ﴿ لَتَنُوْأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ﴾[5] أى لتنوأ العصبة بها.

●وقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوْا بِرُءُوْسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾[6]أى اغسلوا أرجلَكم.

●وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾[7]أى ولولا كلمة سبقت وأجل مسمى لكان لزامًا.

●وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ﴾[8]متصل بقوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾.

●وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيْمَ ﴾[9]متصل بقوله﴿لَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيْ إِبْرَاهِيْمَ﴾

●وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾[10]أى يسئلونك عنها كأنك حفى،

الزيادة فى الكلام

والزيادة على السنن الطبيعى أيضًا على أقسام:

---

(١) اى سلبتْ بثينةُ فؤادى، بلاجرم أتيتُ به، شأنها سلاما.(٢) سورة الحِجْر ٥٩ و ٦٠ (٣) سورة التين ٧(٤) سورة الحج ١٣ واللام فيه زائدة.(٥) سورة القصص ٧٦(٦) سورة المائدة ٦(٧) سورة طه ١٢٩ وهذا مثال التقديم والتاخير .(٨) سورة الأنفال ٧٣(٩) سورة الممتحنة ٤ (١٠) سورة الأعراف. ١٨٧ وفيه أيضًا تقديم وتاخير.

الزيادة بالصفة:

قد تكون الزيادة فى الكلام بالصفة، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿وَلاَطَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[1].

●وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوْعًا: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوْعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوْعًا﴾[2].

الزيادة بالإبدال

وقد تكون بالإبدال، نحو قوله تعالى: ﴿لِلَّذِيْنَ اسْتُضْعِفُوْا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾[3]

الزيادة بالعطف التفسيرى

وقد تكون بالعطف التفسيرى، نحو قوله تعالى: ﴿حَتّٰى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَبَلَغَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً﴾[4]

الزيادة بالتكرار

وقد تكون بالتكرار، نحو:

●قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُوْنَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾[5] أصل الكلام: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن.

●وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّاجَاءَ هُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ــــ وَكَانُوْا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُوْنَ عَلَى الَّذِيْنَ كَفَرُوْا ــــ فَلَمَّا جَاءَ هُمْ مَا عَرَفُوْا كَفَرُوْا بِهِ﴾[6]

●وقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِيْنَ لَوْ تَرَكُوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوْا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوْا اللّٰهَ﴾[7].

●وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ؟ قُلْ: هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[8] اى هى مواقيت للناس باعتبار أن الله تعالى شرع لهم التوقيت بها، وللحج

---

(١) سورة الأنعام ٣٨. (٢) سورة المعارج ١٩- ٢١ (٣) سورة الأعراف ٧٥ (٤) سورة الأحقاف ١٥ (٥) سورة يونس ٦٦ (٦) سورة البقرة ٨٩ (٧) سورة النساء ٩ (٨) سورة البقرة ١٨٩.

باعتبار أن التوقيت بها حاصل للحج، ولوقيل:"هى مواقيت للناس فى حجهم" لكان أخصر ؛ ولكن اطنب.

●وقوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا، وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمعِ﴾(١) اى تنذر أم القرى يوم الجمع.

●وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾(٢) أى ترى الجبال جامدة؛ أدخل "الحسبان " لأن " الرؤية" تجيء لمعان، والمراد بها ههنا معنى "الحسبان".

●وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَّاحِدَةً، فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّيْنَ مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيْمَا اخْتَلَفُوْا فِيْهِ ـــ وَمَا اخْتَلَفَ فِيْهِ إِلاَّ الَّذِيْنَ أُوْتُوْهُ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَ تْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ـــ فَهَدَى اللّٰهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا لِمَا اخْتَلَفُوْا فِيْهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ،وَاللّٰهُ يَهْدِىْ مَنْ يشَاءُ إِلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾(٣) ادخل: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيْهِ إِلاَّ الَّذِيْنَ أُوْتُوْه﴾ فى تضاعيف الكلام المنتظم بعضه ببعض بيانا لضمير:"اختلفوا" وأيذانا بأن المراد من "الاختلاف" ههنا: هو الاختلاف الواقع فى أمة الدعوة بعد نزول الكتاب: بأن آمن بعض وكفر بعض.

زيادة حرف الجر

وقد يزيد سبحانه وتعالى حرف الجر على الفاعل، أو المفعول به، ويجعله معمولا للفعل بواسطة حرف الجر، لتأكيد الاتصال، نحوُ:

●قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمىٰ عَلَيْهَا﴾(٤) اى تُحمى هى.

●وقوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلىٰ آثَارِهِمْ بِعِيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾(٥) أى قفينا هم بعيسى ابن مريم .

---

(١) سورة الشورى ٧ (٢) سورة النمل ٨٨ (٣) سورة البقرة ٢١٣ (٤) سورة التوبة ٣٥ (٥) سورة المائدة ٤٦ .

واو الاتصال

وينبغي أن يُعلم هنا نكتةٌ، وهي أن " الواو" تستعمل في مواضع كثيرة لتوكيد الاتصال، لاللعطف، نحوُ:

- قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ – إلى قوله تعالى – وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (١)
- وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾(٢).
- وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا﴾(٣).

فاء الاتصال

وكذلك تزاد " الفاء" أيضا، قال القسطلاني في شرح كتاب الحج، في باب المعتمر إذا طاف طواف العمرة ثم خرج، هل يجزيه من طواف الْوَداع؟:

"ويجوز توسط العاطف بين الصفة والموصوف لتأكيد لصوقها بالموصوف، نحو: ﴿إِذْ يَقُوْلُ الْمُنَافِقُوْنَ وَالَّذِيْنَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ﴾(٤) قال سيبويهِ: هو مثل: " مررت بزيد وصاحبك" إذا أردت بصاحبك زيدًا.

وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُوْمٌ﴾:(٥) جملة واقعة صفة لقرية؛ والقياس أن لاتتوسط الواو بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُوْنَ﴾(٦) وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاء ني زيد عليه ثوب، وجاء ني زيد وعليه ثوب (انتهى)(٧)

انتشار الضمائر، وإرادة المعنيين من كلمة واحدة

وربما تكون الصعوبة في فهم المراد لانتشار الضمائر، وإرادة المعنيين من كلمة واحدة، نحوُ:

---

(١) سورة الواقعة ١-٧ (٢) سورة الزمر ٧٣ (٣) سورة آل عمران ١٤١. (٤) سورة الأنفال ٤٩. (٥) سورة الحجر ٤ (٦) سورة الشعراء ٢٠٨ (٧) أي انتهى كلام الزمخشري • به انتهى النقل من القسطلاني. (٣: ٣٢٩)

•قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوْنَهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ، وَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُوْنَ﴾[1]
يعني أن الشياطين ليصدون الناس عن السبيل، ويحسب الناس أنهم مهتدون.
•وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِيْنُهُ﴾[2] المراد به الشيطان في موضع واحد، وفي الموضع الآخر الملَك.
•وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ مَاذَايُنْفِقُوْنَ؟ قُلْ: مَاأَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُوْنَكَ مَاذَا يُنْفِقُوْنَ؟ قُلِ:الْعَفْوَ﴾[4] فالأول معناه: أيُّ إنفاق ينفقون؟ وأيُّ نوع من الإنفاق ينفقون؟ وهو صادق بالسؤال عن المصرف، لأن الإنفاق يصير باعتبار المصارف أنواعا؛ والثاني معناه: أيُّ مال ينفقون؟

ومن هذا القبيل[5]: مجيء لفظ" جعل" و"شيء" ونحوهما لمعان شتّى:
•قديجيء " جعل" بمعنى خلق، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّوْرَ﴾[6]
•وقد يكون بمعنى اعتقد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوْا لِلّٰهِ مِمَّا ذَرَأ﴾[7]
ويجيء "شيء" مكانَ الفاعل، والمفعول به والمفعول المطلق وغيرها، نحوُ:
•قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوْا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾[8] أى من غير خالق.
•وقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِيْ عَنْ شَيْءٍ﴾[9] أى عن شيء مما تتوقف فيه من أمرى.

وقد يريد بالأمر والنبأ والخَطْب المخبرَ عنه، نحوُ:
•قوله تعالى: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيْمٌ﴾[10] أى قصة عجيبة.

وكذلك: كلمتا الخيروالشر وما في معناهما يختلف المراد منهما حسب اختلاف المواضع.

ومن هذا القبيل[11]: انتشار الآيات: قد يُبادِر إلى آية مقامُها الأصلي بعد

---

(١)سورة الزخرف ٣٧ (٢) في سورة ق في موضعين في آية ٢٣ و ٢٧ (٣) سورة البقرة ٢١٥ (٤) سورة البقرة ٢١٩. (٥)أى من قبيل أرادة المعنيين من كلمة واحدة (٦) سورة الأنعام ١ (٧) سورة الأنعام ١٣٦ (٨)سورة الطور ٣٥ (٩) سورة الكهف ٧٠ (١٠)سورة ص ٦٧ (١١) أى من قبيل انتشار الضمائر

إيراد القصة، فيذكرها قبل تمام القصة، ثم يعود إلى القصة فيتمها[1]

وقد تكون الآية: متقدمة في النزول، متأخرة في التلاوة نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾[2] مقدمة في النزول وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾[3] متأخرة؛ وفي التلاوة بالعكس.

وقد يُدرَج الجوابُ في تضاعيف أقوال الكفار، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ـ قُلْ: إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ـ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾[4]

وبالجملة: فهذه المباحث تحتاج إلى تفصيل كثير، وفيما ذكرناه كفاية؛ ومن قرأ القرآن الكريم من أهل السعادة، واستحضر هذه الأمور عند تلاوته؛ أدرك بأدنى تأمل غرضَ الكلامِ ومغزاه، ويقيس غير المذكور على المذكور، وينتقل من مثال إلى أمثلة أخرى.

الفصل الخامس

في

بيان المحكم، والمتشابه والكناية والتعريض والمجاز العقلي

المحكم

لِيُعلم أن المحكم هو مالا يُدرِك العارفُ باللغة من ذلك الكلام إلا معنى واحدًا؛ والمعتبر فَهمُ العرب الأولين، لافهمُ مدقِّقِيْ زماننا الذين يشقُّون الشَّعرةَ، فإن التدقيق الفارغ داءٌ عُضال يجعل المحكم متشابها، والمعلوم مجهولاً.

المتشابه

والمتشابه هو ما يحتمل معنيين:

(١) كما في سورة الحجر ٦٠ (٢) سورة البقرة ١٤٣ (٣) سورة البقرة ١٤٢ (٤) سورة آل عمران ٧٣

●لاحتمال رجوع الضمير إلى المرجعين، كما قال رجل:" أمَا إن الأمير أمرنى أن ألعن فُلانا، لعنه الله!"

●أو لاشتراك الكلمة فى معنيين،نحو قوله تعالى﴿لاَمَسْتُمْ﴾[1] فى الجماع واللمس باليد.

● أولاحتمال العطف على القريب والبعيد، نحو قوله تعالى:﴿وَامْسَحُوْا بِرُءُوْسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ ﴾[2] فى قراءة الكسر.

●أولاحتمال العطف والاستيناف، نحو قوله تعالى:﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ، والرَّاسِخُوْنَ فِى الْعِلْمِ﴾[3].

الكناية:

والكناية هى أن يُثْبِت حكما من الأحكام، ولا يقصُد به ثبوت ذلك الأمر بعينه، بل يقصد أن ينتقل ذهن المخاطب إلى لازمه بلزوم عادى أوعقلى،كما يفهم معنى كثرة الضيافة من قولهم:"عظيمُ الرماد" ويفهم معنى السخاوة من قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوْطَتَانِ﴾[4].

تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة:

وتصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة من هذا القبيل[5]؛ وذلك باب واسع فى أشعار العرب وخُطَبهم؛ والقرآنُ العظيم وسنةُ نبينا صلى الله عليه وسلم مشحون به، نحو:

●قوله تعالى:﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[6]:شبّه الشيطان برئيس قُطّاع الطريق،حيث ينادى أصحابَه، فيقول:"تعالَ من هذه الجهة" و"ادخل من تلك الجهة".

---

(١)سورة النساء ٤٣ وسورة المائدة ٦ (٢) سورة المائدة ٦ وأما فى قراءة النصب فيتعين العطف على البعيد .(٣) سورة آل عمران ٧.(٤)سورة المائدة ٦٤(٥)أى من قبيل الكناية (٦)سورة الإسراء ٦٤(٤)سورة يسٓ ٩ .

●وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَّمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾[1]؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾[2] شبّه إعراضهم عن تدبر الآيات بمن غُلّتْ يداه، أو بُنى حواليه سَد من كل جهة فلم يستطع النظر أصلاً.

●وقوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾[3] يعنى اجمع خاطرك، ودع الاضطراب وقلق البال.

ونظير ذلك[4] فى العرف:

●أنه إذا أراد أحد أن يبين شجاعة رجل يشير بالسيف أنه يضرب إلى هذه الجهة، ويضرب إلى تلك الجهة، وليس مقصوده إلا بيان غلبته أهلَ الآفاق بصفة الشجاعة، ولو لم يأخذ السيف بيده مرة من الدهر.

●أو يقولون: فلان يقول: "لاأرى أحداً على وجه الأرض يبارزنى"؛ أو يقولون: " فلان يفعل كذا وكذا" ويشيرون بهيئة أهل المبارزة وقتَ مغالبة الخصم؛ ولو لم يصدر عنه هذا القول قط، ولم يفعل هذا الفعل أصلاً.

●أو يقولون: " فلان خنقنى ونزع اللقمة من فمى "[5]

التعريض

والتعريض أن يذكر الله تعالى حكما عاما أو منكّرا، ويكون الغرض منه الإيماء إلى حال رجل خاص، أو التنبيهُ على حال رجل معين، ويأتى فى غُضون[6] الكلام بعضُ خصوصيات ذلك الرجل التى يعرِّف المخاطب عليه، فيغرَق القارئ فى الفكر فى مثل هذا الموضع ، ويحتاج إلى تلك القصة؛ و كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينكر على شخص يقول:" مابالُ أقوام يفعلون كذا وكذا"، وكما:

---

(١)سورة يٰس ٩(٢)سورة يٰس ٨(٣) سورة القصص ٣٢(٤)أى نظير تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة(٥) هذه التعبيرات وأمثال هذه كلها من قبيل تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة(٦) يقال : جاء فى غُضُون كلامك كذا: فى أثنائه وطَيّاته.

●في قوله تعالى :﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَّلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ أَمْرًا﴾ الآية [1] تعريض لقصة زينب وأخيه.

●وفي قوله تعالى:﴿وَلاَيَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾[2] تعريض بأبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ففي هذه الصُور مالم يطلعوا على تلك القصة لايدركون فحوى [3] الكلام

المجاز العقلي

والمجاز العقلي: هوأن يُسْنَدَ الفعلُ إلى غير فاعله، أويُجعل المفعول به ماليس بمفعول به في الحقيقة ، لعلاقة المشابهة بينهما، ويدَّعى المتكلم أنه داخل في عَداده، وفرد من أفراده

●كمايقولون: " بنى الأمير القصر" مع أن الباني بعض البنّائين.

●وكما يقولون:" أنبت الربيع البقل" مع أن المنبت هو الله سبحانه وتعالى في فصل الربيع، والله أعلم بالصواب.

الباب الثالث

في

بيان لطائف نظم القرآن ، وشرح أسلوبه البديع

الفصل الأول

في

ترتيب القرآن الكريم، وأسلوب السُّور فيه

لم يُجعل القرآنُ مبوبا مفصلا على منهج المتون، لِيُذكر كل مطلب منه في باب أوفصل، بل افترض القرآن الكريم كمجموعة المكتوبات،فكما

(١)سورة الأحزاب ٣٦ .(٢) سورة النور ٢٢ (٣) فحوى القول: مضمونه ومرماه الذى يتّجه إليه القائل ج فحاوٍ وفَحَاوَى.

يوجّه الملوك إلى رعاياهم حسب متقضيات الأحوال فرمانا، وبعد زمان يكتبون فرمانا آخر، وهلم جرًّا،حتى تجتمع فرامينُ كثيرة، فيدوِّنها شخص ويجعلها مجموعا مرتبا، كذلك أنزل الملِك على الإطلاق جلَّ شأنُه على نبيه صلى الله عليه وسلم لهداية عباده سورةً بعد سورة حسب مُتَطَلَّبات الظروف.

وقدكانت كل سورة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم محفوظة مضبوطة على حدة، ثم دوِّنت السور كلها فى مجلد واحد بترتيب خاص فى عهد أبى بكروعمررضى الله عنهما، وسمى هذاالمجموع بالمُصْحف.

تقسيم السُّور

وقد كانت السور مقسومة عند الصحابة رضى الله عنهم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: السبع الطُوَل التى هى أطول السور.

والقسم الثاني: المِئُوْن: وهى التى تشتمل كل واحدة منها على مِائَة آية، أو تزيد قليلاً.

والقسم الثالث: المثانى: وهى ماتقِلُّ آياتُها عن المائة.

والقسم الرابع: المفصل

وقد أُدخلت سورتان أو ثلاث هى من عداد المثانى فى المئين، لمناسبة سياقها بسياق المئين؛ وهكذا جرى التصرف فى بعض الأقسام الأخرى أيضًا.

القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه

وقد استنسخ عثمان رضى الله عنه عِدَّة نُسَخ من ذلك المصحف، وأرسلها إلى الآفاق، ليستفيد المسلمون منها، ولايميلون إلى ترتيب آخر.

استهلال السور واختتامها على أسلوب الفرامين

ولما كانت بين أسلوب السور واسيهب فرامين الملوك مناسبةٌ تامة، رُوعى فى البداية والنهاية طريق المكاتيب؛ فكما أنهم يبتدؤن بعضَها بحمد الله تعالى، وبعضَها ببيان غرض الإملاء، وبعضَها ببيان اسم المرسِل والمرسَل

إليه؛ وبعضُها تكون رُقعةً وَشِقَّة بغيرعنوان، وبعضُها تكون طويلة،وأخرى مختصرة،كذلك استهَلَّ اللّٰه تعالى بعض السور بالحمد والتسبيح، وبعضها ببيان غرض التنزيل،كما قال تعالى:﴿ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيْهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ﴾[1]
وقال تعالى:﴿سُوْرَةٌ أَنْزَلْنٰهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾[2]

وهذا القسم من السُور يُشبهُ بما يكتبون:[3]"هذا ماصالح عليه فلان وفلان" و"هذا ما أوصى به فلان" وقد كتب النبى صلى اللّٰه عليه وسلم فى صلح الحديبية: "هذا ما قاضى عليه محمد ـــــ صلى اللّٰه عليه وسلم .[4]

واستهلَّ بعضها بذكر المرسِل والمرسَل إليه،كما قال تعالى:﴿ تَنْزِيْلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيْزِ الْحَكِيْمِ﴾[5]وقال تعالى:﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيْمٍ خَبِيْرٍ﴾[6].

وهذا القسم يشبه بما يكتبون:"صدر الحكم من الباب العالى"أو يكتبون: "هذا إعلام من حضرة الخلافة إلى سكّان البلد الفلانى بأن الخ"؛ وقد كتب النبى صلى اللّٰه عليه وسلم :"من محمد رسول اللّٰه إلى هِرَقْلَ عظيم الروم"[7]

واستهلَّ بعضَها على أسلوب الرِّقاع والشُّقَق[8]بغيرعنوان،كما قال تعالى: ﴿إِذَاجَاءَ كَ الْمُنَافِقُوْنَ﴾[9]وقال تعالى:﴿قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِىْ تُجَادِلُكَ فِىْ زَوْجِهَا ﴾[10]وقال تعالى:﴿ يآَ يُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾[11].

منهج القصائد فى مبتدأ بعض السور

ولماكانت فصاحةُ العرب تتجلى فى القصائد، وكان من عاداتهم القديمة

---

(١) سورة البقرة ٢(٢) سورة النُور١(٣) أى فى استهلال الوثائق والمعاهدات.(٤) البخارى ص٣٧٢ (٥) سورة الجاثية٢ (٦) سورة هود١(٧)البخارى (١:٥) (٨) الرقاع جمع الرقعة: القطعة من الورق التى تكتب فيها،(پرچہ) والشقق جمع الشُّقَّة: مَا شُقَّ من ثوب أوورق مستطيلاً (کپڑے وغیرہ کی لمبی چٹ)(٩) سورة المنافقون ١(١٠) سورة المجادلة ١(١١) سورة التحريم ١.

في مبدأ القصائد التشبيبُ[1] بذكر المواضع العجيبة والوقائع الهائلة، فاختار سبحانه وتعالى هذا الأسلوب في بعض السور، كما قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا، فَالحَامِلاَتِ وِقْرًا﴾[3] وقال تعالى: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ،وَإِذَا النُّجُوْمُ انْكَدَرَتْ ﴾[4]

خواتم السورعلى منهج الفرامين

وكما أن الملوك يختمون فرامينهم بجوامع الكلم، ونوادرالوصايا، والتأكيد البليغ بتمسك الأوامر المذكورة، والتهديد الشديدلكل من يخالفها، كذلك ختم الله تبارك وتعالى أواخر السور بجوامع الكلم، ومنابع الحِكَم والتأكيد البليغ والتهديد العظيم.

تخلل الكلام البليغ في أثناء السور

وقد يؤتى في أثناء السور بالكلام البليغ العظيم الفائدة البديع الأسلوب، الذى يشتمل على نوع من الحمد والتسبيح، أوعلى نوع من النعم والامتنان، كما:

- بدأ بيانَ التباين بين مرتبة الخالق والمخلوق بقوله: ﴿ قُلِ: الحَمْدُ لِلّٰهِ، وَسَلٰمٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِيْنَ اصْطَفٰى، آللّٰهُ خَيْرٌ اَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾[5] ثم بين هذا الموضوع في خمس آيات بأبلغ وجه وأبدع أسلوب.
- وبدأ مخاصمةَ بني إسرائيل في أثناء سورة البقرة بقوله: ﴿يٰبَنِيْ إِسْرَائِيْلَ اذْكُرُوْا﴾[6] ثم ختمها بنفس هذا الكلام؛ فابتداء المحاجّة بهذه الكلمة، وانتهاء هابها يَحْتَلُّ[7] مكانا عظيما في البلاغة.
- وبدأ المخاصمة مع أهل الكتاب في سورة آل عمران بقوله: ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ

(١) شبَّب قصيدته: حسَّنها وزينها بذكر النساء، والعادة أن يكون التشبيب في مبدأ قصائد المدح، ثم سمي ابتداء كل أمر تشبيبا، وإن لم يكن فيه ذكر الشباب والنساء(٢)سورة الصافات١و٢(٣)سورة الذاريات١و٢(٤)سورة التكوير١و٢.
(٥)سورة النمل ٥٩(٦) سورة البقرة ٤٧ و ١٢٢(٧) احتلَّ مكانا: حلّه ونزله واحتلَّ مكانا عظيما في البلاغة (فصاحت میں اس کا بہت اہم مقام ہے)۔

اللّٰهِ الإسْلاَمُ﴾[1] ليتَّضِح محلُّ النزاع،ويدورَ الحِوارُ[2] على ذلك المدعى والله أعلم بحقيقة الحال.

الفصل الثانی
فی
تقسیم السور إلی الآیات، وأسلوبها الفرید

لقد جرت سنة اللّٰه تعالی فی أکثر السور[3] بتقسیمها إلی الآیات،کما کانوا یقسمون القصائدَ إلی الأبیات.

الفرق بین الآیات والأبیات

وغایة مایقال فی الفرق بینهما: أن کلا منهما نشائد[4]،التی تُنشَد لالتذاذ نفسِ المتکلم والسامع؛ إلا أن الأبیاتِ مقیدةٌ بالعروض والقوافی.[5] التی دوَّنها الخلیل بن أحمد[6] وتلقَّاها منه الشعراء، وبناء الآیات علی الوزن والقافیة الإجمالیین، یشبهان أمرا طبیعیا،لا علی أفاعیل العروضیین وتفاعیلهم.[7] وقوافیهم المعینة التی هی أمر صناعی واصطلاحی.

الأمر المشترك بین الآیات والأبیات

وأما تنقیح الأمرالمشترك بین الآیات والأبیات ـــ ونعبِّر ذلك الأمرَ

---

(١) سورة آل عمران ١٩ (٢)الحوار(گفتگو،بات چیت)(٣)ستقف علی فائدة التقیید بالأکثر فی آخر الفصل(٤) النشائد جمع النشِید والنشیدة: ما یرفع فیه الصوت مع التلحین (گانا،ترانہ،شعرجس کوراگ کے ساتھ بلند آواز سے پڑھیں) وانشد الشعر: قرأه رافعًا به صوته(٥) العروض : میزان الشعر الذی یظهر به المتزن من المختلّ ، والقافیة: آخر کلمة فی البیت، اوهی: من آخرساکن فیه إلی أول ساکن یلیه مع المتحرك الذی قبل الساکن، فلو قلت مثلاً:" ما أطولَ اللیلَ علی من لم یَنَمْ" کانت القافیة " لم ینم"(٦) هو خلیل بن أحمد الفراهیدی:من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض،وهوأستاذ سیبویه ولدسنة،١٠٠هـ وتوفی سنة ١٧٠هـ (٧) الأفاعیل والتفاعیل : أمثلة الأجزاء التی یتألف منها الشعر، وهی أربعة: فُعولن، مفاعیلن، مفاعلتن ،فاعلاتن،وبقیة الأجزاء مأخوذة منها.

العامَّ بالنشائد[1] ـــــ ثم ضبطُ تلك الأمور التى التُزم بها فى الآيات ـــــ وذلك بمنزلة الفصل ـــــ فكلُّ ذلك يحتاج إلى تفصيل ، والله ولى التوفيق.

وتفصيل هذا الإجمال :أن الفطرة السليمة تدرك بذوقها فى القصائد الموزونة المقفَّاة، والأراجيز الرائقة الجميلة، وأمثالها، حلاوةً وعذوبةً؛ وإذا تأمل أحد فى سبب إدراك تلك الحلاوة، وجد أن نفس المخاطب تتذوَّق لذةً خاصة فى الكلام الذى يوافق بعضُه بعضا، ويجعلُها منتظرًا إلى كلام آخر مثلِه، فإذا سمعتْ بعد ذلك البيتَ الآخرَ مع ذلك التوافق والانسجام بين أجزائه، وتحقَّق الأمرُ المنتظَر، تضاعفت اللذةُ عند ذلك؛ ولما كان البيتان مشتركين فى قافية واحدة، ازدادت اللذَّةُ ثلاثةَ أضعافها؛ فالتمتع والالتذاذ بالأبيات بهذا السِّر فطرة قديمة فُطرالناس عليها، وأصحابُ الأمزجة السليمة من أهل الأقاليم المعتدلة متفقون على ذلك.

ثم حدثت بعدذلك مذاهبُ مختلِفة ورسومٌ متباينة فى توافق الأجزاء[2] فى كل بيت من الأبيات، وكذا فى شروط القوافى المشتركة بين الأبيات: فالعرب عندهم ضوابطُ وأصولٌ بينها الخليل، والهنود يتبعون قانونا يحكم به سليقتهم اللغوية وقريحتُهم[3] الفطرية، وهكذا اختار أهل كل عصر وَضْعا من الأوضاع[4] وسلكوا مسلكا من المسالك.

التوافق التقريبيُّ هو الأمر المشترك بين مختلف الكلام المنظوم

وإذا أردنا أن ننتزع من بين هذه الرسوم والمذاهب المختلفة أمراً جامعًا مشتركًا، وتأملنا السِّرالمنتشرالشاملَ فيها، وجدنا أنه هو التوافق التقريبى، لاغير، لأن العرب يستعملون مفاعيلٌ[5] ومفتعلنْ مكان مستفعلن، ويعتبرون

---

(١)وهذا بمنزلة الجنس.(٢) الأجزاء :أركان الوزن (٣) القريحة من الإنسان: طبيعته التى جُبل عليها(٤) الوضع: هيئة الشيء التى يكون عليها(٥) الإعراب حكائى.

فَعْلاتُنْ بدل فاعلاتُنْ وفقَ القاعدة، ويجعلون موافقةَ ضَرْبِ[1] بيت بضرب بيت آخر، وموافقةَ عَروض بيت بعروض بيت آخر، أمرًا مهمًّا؛ ويجوِّزون زِحافاتٍ[2] كثيرةً في الحشو[3] بخلاف شعراء الفُرس، فإن الزِّحافات عندهم مستهجنة[4].

وكذلك تستحسن العربُ كونَ القافية في البيت "قبورًا" وفي البيت الآخر" منيرا" بخلاف شعراء العجم.

وهكذا يرى الشعراء العرب أن "حاصلْ" و"داخلْ" و"نازلْ" من قسم واحد، بخلاف الشعراء العجم.

وكذلك وقوع كلمة واحدة بين شطرَيِ البيت، بحيث يكون نصفها في الصَدْر ، والنصف الآخر في العَجُزِ[5] صحيح عند العرب، لاعندالعجم .

وفَذْلكة القول: أن الأمرالجامع المشترك بين الكلام المنظوم العربي والفارسي هو التوافق التقريبي، لاالتوافق التحقيقي.

وقد وضع الهنود أوزان شعرهم على عدد الحروف بدون ملاحظة الحركات والسكنات، وهي أيضًا تمنح لذةً وحلاوة، وقد سمعنا بعضَ أهل البداوة يختارون في تغريداتهم[6] التي يتلذذون بها، كلامًا متوافقًا بتوافق تقريبي، أورديفًا[7]ـــ تارة يكون كلمة واحدةً، وأخرى يزيد عليهاـــ وينشدونها مثل القصائد، ويتلذذون بها؛ ولكل قوم أسلوب خاص في كلامهم المنظوم.

وهكذا وقع اتفاق الأمم على الالتذاذ بألحانٍ ونغماتٍ، وتحقَّق اختلافهم

---

(١)الضرب: الجزء الأخير من المصراع الثاني من البيت،والعروض هنا هوالجزء الأخير من المصراع الأول من البيت(٢) الزحاف: تغيير يَلْحق ثاني السبب الخفيف أو الثقيل(٣) الحشو: أركان البحر الواقعة بين الصدر والعروض، وبين الابتداء والضرب، (٤)استهجنه: استقبحه(٥)الصدر:المصراع الأول من البيت والعَجُز: المصراع الثاني منه.(٦)غرَّد الطائر والإنسان: رفع صوته بالغناء وطرَّب به (٧) والرديف عند العجم: كلمة مستقلة تأتي في آخر البيت بعد القافية.

في قوانين تغريدهم، وأساليب تلحينهم[1]

وقد وضع اليونانيون عددًا من الأوزان، يسمونها "المقاماتِ" واستنبطوا منها أصواتا وَشُعَبا، ودوَّنوا لأنفسهم فَنَّاميسوطا مفصلاً.

وكذلك وضع الهنود ستة نغمات، وفرَّعوا منها نُغَيْمَاتٍ؛[2]وقد رأينا أهلَ البداوة منهم الذين لايعرفون هذين المصطلحين،تفطنوا بحسب سليقتهم لتأليف الكلام وتلحينه، وتغنَّوا به من دون أن يضبطوا له الكلياتِ، ويحصُروا له الجزئيات.

وإذا حكّمناالَحذَسَ[3]بعد هذه الملاحظات، لم نَجد الأمر المشترك سوى التوافق التقريبي؛ ولاغرض للعقل إلا بذلك المنتزع الإجمالي، ولاهمَّ له في تفاصيل القوافي المردفة الموصولة[4]؛ولايحب الذوق السليم إلا تلك الحلاوة المَحْضة والعذوبة الخالصة، ولاعلاقة له بطويل البحر ومديده.

مراعاة القرآن الكريم للحسن الإجمالي المشترك

ولمَّا أراد الخلأق ـــ جلَّتْ قدرته ـــ أن يخاطب الإنسان المخلوقَ من قُبضةِ طِيْنٍ، نظر إلى ذلك الحسن الإجمالي والجمال المشترك فحسب، ولم ينظر إلى قوالبَ مستحسنة عند قوم دون قوم؛ وحينما شاء مالك الملك أن يتكلم على منهج الآدميين، لاحظ ذلك الأصل البسيط والسر المشترك، ولم يراع هذه القوانين المتغيرة بتغير الأدوار والأطوار.

ومبنى التمسك بالقوانين الاصطلاحية هو العَجز والجهل؛ وتحصيلُ تلك الحسنِ الإجمالي والجمال الفني بدون توسط تلك القواعد ـــ بحيث

---

(١)لحَّن في قرا ئته:طرَّب فيها،وغرَّدبالحان .(٢)نغمة: راگ نُغَيْمَة راگنياں (٣) الحَذَس: سرعة الانتقال في الفهم والاستنتاج (٤) الرَّويُّ: الحرف الذى تُبْنى عليه القصيدة، وإليه تُنسب، يقال: قصيدة بائية: إذا كان رَوِيُّهَا الباء؛ ثم الرَّوِيُّ إن كان ساكنا فمقيد، والقافية مقيدة؛ وإلا فمطلق والقافية مطلقة ؛ فإن سبقه مدَّة اولين فرِدْف ، والقافية مُرْدفة؛ وإن لَحِقَهُ مَدَّة أوهاء ساكنة ب فصل فوصل ، والقافية موصولة؛ فمثال القافية المردفة الموصولة: "ومن أين للوجهِ المليح ذنوبُ؟": الرِّدْف واو في آخر الباء،والوصل واو قبل الباء وكذا : "وقلنا القومُ إخوانٌ" الردف واو، والوصل الف (محيط الدائرة).

لايتغير البيان فى الوِهاد والأنجاد[1] ولايَضيع الكلام فى السُهول والجبال ـــ معجِز ومفحَم[2]، وأنا أنتزع من جَرَيان الحق تعالى على ذلك السُنن أصلاً، واضع منه قاعدةً:

وتلك القاعدة: أنه تعالى قدراعى فى أكثر السور امتداد النفَس[3] لاالبحر الطويل والمديد؛ وكذلك اعتبر فى الفواصل انقطاعَ النفَس بالمدَّة، وبما تستقر عليه المدَّة، لاقواعدَ فن القافية.

وهـذه الكلمـة أيضًـا تقتضى بسطـا وتفصيـلاً فَلْيُلْقِ القارئ السمعَ لما يُذكر بالتالى:

الامتداد النفَسى الطبيعى هوالوزن فى القرآن.

إعلم أن دخولَ النفَس فى الحلقوم وخروجَه منه أمرطبيعى فى الإنسان، وإن كان تمديدُه وتقصيره من مقدوره، ولكنه إذا تُرك على سجِيّته فلا بد له من امتداد محدود؛ والإنســانُ حينمـا يتنفـس يجد النشاط، ثم يضمَحِلُّ ذلك النشاطُ تدريجا، حتى ينقطع كلياً فى آخر الأمر، ويضطر إلى أخذ النفَس الجديد الطازج.

وهذا الامتداد أمرمحدَّد بحدٍ مُبْهَم، ومقدَّر بمقدارمشترك،بحيث لايَضُرُّه نقصانُ كلمتين أو ثلاثٍ، بل ولا نقصانُ قَدْر الثُلث والربع وكذلك لايُخرجه عن الحد زيادةُ كلمتين أو ثلاث، بل ولازيادة قدر الثُلث والربع؛

---

(١)الوهاد: الأرض المنخفضة، والأنجاد جمع نَجْد: المكان المرتفع (٢) أى أن الاحتياج إلى القوانين العرفية لعجز الإنسان وجهله، فإنه لايقدر على تحصيل ذلك الحسن الإجمالى بكماله بدون توسط تلك القواعد الفنية ؛ ولكن الله تعالى قادر على كل شيء ،فلاحاجة له إلى تلك القوانين الاصطلاحية لتحصيل ذلك الجمال المشترك بين كلام طوائف الناس.(٣)النفَس ـــ بفتح الفاء ـــ ريح يدخل ويخرج من فم الحي حالة التنفس(سانس) والجمع أنفاس.

ويسع فيه اختلاف عدد الأوتاد والأسباب[1] ويُسامَح فيه بتقدم بعض الأركان على بعض[2]

فجُعل هذا الامتدادُ النفَسي وزنًا، وقُسّم على ثلاثَة أقسام:

١- طويل ٢- ومتوسط ٣- وقصير

أما الطويل: فنحو سورة النساء.

وأما المتوسط: فنحو سورة الأعراف والأنعام.

وأما القصير: فنحو سورة الشعراء والدخان.

خاتمة النفَس على المدَّة هي القافية في القرآن

وخاتمة النفَس على المدَّة المعتمِدَة على حرف، هي القافية المتسعة التي يتلذذ الطبع من إعادتها مرارًا؛ ولو كانت تلك المدَّة في موضع "ألفًا" وفي موضع آخر "واوًا" أو "ياءً" وسواء كان ذلك الحرف الأخير في موضع "باء" وفي موضع آخر "مِيما" أو "قافا" فـ "يعلمون" و"مؤمنين" و"مستقيم" كلُّها متوافقة؛ و"خروج" و"مريج" و"تحيد" و"تبار" و"فواق" و"عجاب" كلُّها على قاعدة.

لحوق الألف في آخر الكلمة أيضًا قافيةٌ

وكذلك لحوق الألف في آخر الكلمة قافية متسعة، في إعادتها لذة، ولو كان حرف الروى[3] مختلفًا، فيقول في موضع "كريما" وفي موضع آخر "حديثا" وفي موضع ثالث "بصيرا".

فإن الْتُزم في هذه الصورة موافقةُ الروى، كان من قبيل: "التزام مالايلتزم"[4]

---

(١) الوتد: ثلاثة أحرف، ثانيها أو ثالثها ساكن؛ فإن سكن وسطُها كما في "قول" فهو الوتد المفروق؛ وإن تحرك وسطها، وسكن آخرها كما في "علىٰ" فهو الوتد المجموع، والسبب: حرفان، ثانيهما ساكن نحو "لَمْ" ويسمى سببا خفيفًا؛ وإن كانا متحركين، فهو سبب ثقيل، نحو: "أَرَ" في لم أر. (٢) الأركان . افاعيل العَروضيين وتفاعيلهم. (٣) الروى: كل حرف يقع آخر البيت، إلا ما استثنى منه من التنوين أو بدل من التنوين ، أو حرف إشباعي مجلوب لبيان الحركة، وما إلى ذلك . (٤) التزام الخ اسكو سرلےليا جسكو سرلينا ضروری نہیں تھا۔

كما وقع فى أوائل سورة مريم وسورة الفرقان.

توافق الآيات على حرف واحد وإعادة الجملة مفيدُ لذةٍ

وكذلك توافق الآيات على حرف واحد، كحرف "الميم" فى سورة القتال، و"النون" فى سورة الرحمٰن يفيد لذة وحلاوة.

وكذلك إعادة جملة بعد طائفة من الكلام مفيدُ لذّةٍ كما وقع فى سورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة الرحمٰن، وسورة المرسلات.

اختلاف فواصل آخر السورة من أوائلها

وقد تُبَدَّل فواصلُ آخر السورة أوائلها تنشيطا للسامع، وإشعارا بلطافة الكلام، مثلُ: "إدًّا" و"هَدًّا" فى آخر سورة مريم؛ ومثلُ: "سلامًا" و" كرامًا" فى آخر سورة الفرقان؛ ومثلُ: "طين" و" ساجدين" و"منظرين" فى آخر سورة ص، مع أن الفواصل فى أوائل هذه السور جاء ت مختلفةً عنها، كمالا يخفى

فجُعل الوزن والقافيةُ اللذان مضى التعبير عنهما [١] مهمًّا فى أكثر السور.

منهج القرآن فى الفواصل

إن كان اللفظ فى آخر الآية صالحا للقافِية فَبِهَا، وإلا وصل بجملةٍ فيها بيانُ آلاء الله، أوتنبيهٌ للمخاطب، كما يقول: ﴿وَهُوَ الْحَكِيْمُ الْخَبِيْرُ﴾﴿وَكَانَ اللّٰهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا﴾﴿وَكَانَ اللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرًا﴾﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾﴿إِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾﴿إِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُوْنَ﴾

وقد يُطنب فى مثل هذه المواضع، مثلُ: ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيْرًا﴾[٢] ويستعمل التقديم والتأخير تارة، والقلب والزيادة أخرى، مثلُ: ﴿إِلْ يَاسِيْنَ﴾[٣] فى إلياس، ﴿وَطُوْرِ سِيْنِيْنَ﴾[٤] فى سَيناء.

---

(١) أى بالتوافق التقريبيّ، والمدة المعتمدة على حرف. (٢) سورة الفرقان ٥٩ (٣) سورة الصافات ١٣٠ (٤) سورة التين ٢.

السِّر في الآية الطويلة مع الآيات القصيرة، وبالعكس

ولْيُعلم ههنا: أن انسجام[1] الكلام وسهولتَه على اللسان ـــ لكونه مَثَلاً سائرًا أولتكرر ذكره في الآية ـــ يَجعل الكلامَ الطويل موزونا مع الكلام القصير.

وربما يؤتىٰ بالفِقَر الأُوَل أقصرَ من الفقر التالية، وهو يفيد عذوبة في الكلام نحو قوله تعالى: ﴿خُذُوْهُ فَغُلُّوه ثُمَّ الجَحِيْمَ صَلُّوْهُ ، ثُمَّ فِيْ سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُوْنَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوْهُ﴾[2]، فكأن المتكلم يُضمرفي نفسه في مثل هذا الكلام: أن الفقرة الأولى مع الثانية في كِفَّة[3] والفقرةَ الثالثة وحدَها في كفة.

الآية ذات القوائم الثلاث

وربما تكون الآية ذاتَ قوائم ثلاثٍ، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوْهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوْهٌ: فَأَمَّا الَّذِيْنَ اسْوَدَّتْ الآية ، وَأَمَّا الَّذِيْنَ ابْيَضَّتْ وُجُوْهُهُمْ الآية﴾[4] والعامّة يصِلون الأولى مع الثانية فيحسبونها طويلة.

الآية ذات الفاصلتين

وقد يجيء سبحانه وتعالى بفاصلتين في آية واحدة[5] كما يكون ذلك في البيت أيضًا، نحو:

كالزهر في تَرَفٍ، والبدر في شرف   والبحرِ في كرم، والدهر في هِمَم[6]

أطول آية مع الآيات القصار

وقد يجيء بالآية الواحدة أطولَ من سائر الآيات[7] والسر فيه: أنه لو وُضع

---

(١) انسجم الكلام: انتظم (٢) سورة الحاقّة ٣٠ ـ ٣٢ (٣) الكفة من الميزان: مايُجعل فيه الموزون(پلڑا) (٤) سورة آل عمران ١٠٥ ـ ١٠٧ (٥) كقوله تعالى " رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ، وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ "(الرحمٰن ١٧) وقوله تعالى: " مِمَّا خَطِيْئٰتِهِمْ أُغْرِقُوْا فَأُدْخِلُوا نَارًا، فَلَمْ يَجِدُوْا لَهُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَنْصَارًا "(نوح ٢٥). (٦) والشعر من القصيدة البردة في وصف النبي صلى الله عليه وسلم، والترف: النعومة والمعنى: أنه صلى الله عليه وسلم مثلُ الزهر في اللطافة، والبدر في الشرف، والبحر في الكرم ،والدهر في العزم على الشيء (٧) كمافي سورة المدثر ٣١ فإنها أطول مماقبلها.

حسنُ الكلام الذى نشأ من تقارب الوزن ووجدان الأمر المنتظَر الذى هو القافية، فى كِفَّة، ووُضع حسنُ الكلام الذى نشأ من سهولةِ الأداء وموافقةِ طبع الكلام، وعدمِ لحوق التغير فيه، فى كفة أُخرى، ترجُح الفطرةُ السليمة جانبَ المعنى[1] فَيُهمِلُ أحدَ الانتظارَيْنِ، ويَوفّى الحقَ فى الانتظار الثانى.

لم يُراع ذلك الوزنَ والقافية فى بعض السور

وأماما قلنا فى فاتحة المبحث: أن سنة اللّٰه تعالى قد جرت فى أكثر السور على ذلك، فإنما هولأجل أن اللّٰه سبحانه وتعالى لم يُراع فى بعض السور ذلك النوع من الوزن والقافية فجاء ت طائفة من الكلام على منهج خُطَب الخطباء وأمثال الحكماء؛ ولعلك قد سمعتَ مسامرةَ النساء المرويةَ عن سيدتنا عائشة رضى اللّٰه عنها[2]وفهمت قوافيَهَا؛ ووقع الكلام فى بعض السور على منهج رسائل العرب بدون رعاية شيء، مثل محاورة الناس؛ إلا أنه يختم كل كلام بشيء يكون مبنيا على الاختتام.

والسرهنا: أن الأصل فى لغة العرب هو الوقف فى موضع ينتهى إليه النفَس، ويضمحلَ نشاطُ الكلام؛ والمستحسن فى محل الوقف انتهاء النفَس على المدَّة؛ ومن أجل هذا تشكّلَ الكلام فى صورة الآيات، هذا ما فتح اللّٰه تعالى على العاجز فى هذا الباب، واللّٰه أعلم.

وجه اختيار الأوزان والقوافى الجديدة:[3]

وإن سألوا: لماذا لم يختر سبحانه وتعالى تلك الوزن والقافية اللذَيْنِ هما معتبران عند الشعراء، وهما ألذُ من هذا؟

قلنا: كونُهما ألذَّ يختلف باختلاف الأقوام والأذهان؛ ولو سلمنا:[4]فإبداع

---

(١) يعنى ترجُح حسن الكلام الذى نشأ من سهولة الأداء الخ(٢) صحيح البخارى ص ٧٧٩(٣)غيرتُ هذا البحث من موضعه إلى هنا لاتّساقِه مع مباحث الفصل(٤) أى لو سلمنا أن أوزان الشعراء وقوافيهم ألذُ مطلقا عند جميع طوائف الناس لقلنا: إبداع الخ.

أسلوب من الوزن والقافية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ وهو أميّ ـــ آية ظاهرة على نبوته صلى الله عليه وسلم.

ولو نزل القرآن على أوزان الأشعار وقوافيها لحسب الكفار أنه هو الشعر المعروف المشهور عند العرب، ولم يَجْنُوا من ذلك الحسبان فائدةً، كما أن البلغاء من الشعراء والكتّاب حين يحاولون إبراز مزيتهم، ورجحانَهم على أقرانهم على رءوس الأشهاد يستنبطون صناعة جديدة، ويتحدّون: " هل من رجل يقرض الشعر مثلي، ويكتب الرسالة نحوى؟!" ولو جرى هؤلاء على النمط القديم لم تظهر براعتهم إلا على المحققين البارعين.

الفصل الثالث

فى

وجه التكرار فى العلوم الخسمة، وعدم الترتيب فى بيانها

١- إن سألوا: لماذا كرّرت مطالبُ العلوم الخمسة فى القرآن العظيم؟ ولِمَ لم يكتفِ سبحانه وتعالى ببيانها فى موضع واحد؟

قلنا: إن ما نريد إفادته للسامع على قسمين:

الأول: أن يكون المقصودُ هناك مجردَ تعليم مالا يعلم؛ فالمخاطب الذى لايدرى حكما من الأحكام، ولم يدركه عقله، إذا سمع هذا الكلام يصير ذلك المجهول عنده معلومًا.

والثاني: أن يكون المقصودُ استحضارَ صورةِ ذلك العلم فى قوته المدركة ليتلذ ذبه لذة تامة، وتفنَى القوى القلبية والإدراكية فى ذلك العلم؛ ويغلب لونُ ذلك العلم القُوى كلَّها، حتى تنصبغ به؛ كما نكرر الشعر الذى علمنا معناه، فنجد كلَّ مرة لذةً جديدة، ونحب التكرار لأجل هذه الفائدة.

والقرآن العظيم أراد إفادة القسمين المذكورين بالنسبة إلى كل واحد من مباحث العلوم الخمسة، فأرادتعليم مالا يعلم بالنسبة إلى الجاهل، وأراد

انصباغَ النفوس بتلك العلوم بتكرارها بالنسبة إلى العالِم؛اللهم إلا أكثر مباحث الأحكام، فإنه لم يقع فيها هذا التكرار ؛ لأن الإفادةَ الثانية غيرُ مطلوبة فيها.

ولأجل ذلك أمرنا الله تعالى بتكرار التلاوة والإكثار منها، ولم يكتف بمجرد الفهم.

ولكن راعى سبحانه وتعالى مع التكرار هذا القدر من الفرق: أنه اختار في أكثر الأحوال تكرارَ تلك المطالب بعبارة طريَّة، وأسلوب جديد، ليكون أوقعَ في النفوس، وألذَّ في الأذهان، ولو كرر سبحانه وتعالى.بلفظ واحد لكان كالوِرْد[1]الذي يكررونه؛ وأما في صورة اختلاف التعابير، وتنوع الأساليب فيخوض الذهن، ويتعمَّق الخاطر بأسره في تلك المطالب.

٢- وإن سألوا: لماذا نُشِرت هذه المطالب في القرآن العظيم، ولم يُراع الترتيب: فيذكر آلآءَ الله أولاً، ويستوفي حقَّها، ثم يذكر أيامَ اللهِ فَيُكمِلُهَا، ثم يبدأ بالجدل مع الكفار؟

قلنا: إن قدرةَ الله تبارك وتعالى وإن كانت محيطة بجميع الممكنات، ولكنَّ الحاكم في هذه الأبواب هو الحكمة.

والحكمة: هي موافقة المبعوث إليهم في اللسان وأسلوب البيان، وإلى هذا المعنى أشير في قوله تعالى: ﴿لَقَالُوْا:لَوْلَاَفُصِّلَتْ آيَاتُهُ؟ ءَاَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[2].

ولم يكن لدى العرب إلى وقت نزول القرآن أيُّ كتاب: لا من الكتب الإلٰهية، ولامن مؤلَّفات البشر؛ وإن الترتيب الذي اخترعه المصنفون اليوم لم يكن يعرفه العرب؛ وإن كنت في ريب من هذا،فتأمَّلْ قصائدَالشعراء المُخَضْرَمِيْنَ[3]واقرأرسائلَ النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ومكاتيبَ عُمَرَ

---

(١)الوِرْدُ : الوظيفة أي النصيب من القرآن أو الذكر، يقال : قرأتُ وِرْدي.(٢)سورة فصلت ٤٤(٣) المخضرم: الذي مضى شيء من عمره في الجاهلية وشيء في الإسلام؛ وخصَّهم بالذكر ليعرف أسلوب العرب وقت نزول القرآن.

الفاروقِ رضى الله عنه،يَتَّضِحْ لك هذه الحقيقة؛ فلو جاء الكلام على غيرما كانوا يعهَدونه من طرائق البيان، لوقعوا فى الحيرة، وَلَوَصَلَ إلى سمعهم شيء لايألفونه، ولشوِّش عقولهم.

وأيضًا: لم يكن المقصود مجردَ إفادةِ مالايعلمونه، بل المقصود هو الإفادة مع الاستحضاروالتكرار؛ ويتوفَّر هذا المعنى فى غير المرتب باقوى وجهٍ واتمِ صورةٍ.

الفصل الرابع

فى

وجوه إعجاز القرآن الكريم

وإن سألوا: ما هو وجه الإعجاز فى القرآن الكريم؟

قلنا: الذى تحقَّق عندنا هو ان وجوهَ الإعجاز فى القرآن الكريم كثيرة:

١ـ منها:الأسلوب البديع ـــ لأن العرب كانت لهم عِدَّةُ ميادينَ يركُضون فيها جَوَادَ البلاغة، ويتسابقون فيها مع أقرانهم، ألاَ، وهى القصائد والخطب والرسائل والمُحَاورات؛ ولم يكونوا يعرفون غير هذه الأصناف الأربعة، ولم يكن عندهم قدرةٌ على إبداع أسلوب سواها؛ فإبداعُ أسلوب غيرِ اساليبهم على لسان النبى الأمى صلى الله عليه وسلم عينُ الإعجاز.

٢ـ ومنها: الإخبار عن القِصَص الماضية واحكام الملل السابقة، على وجه يصدِّق الكتب السابقة بدون تعلُّم من احد.

٣ـ ومنها: الإخبار بالأحوال الآتية؛ فكلَّما وُجد شيء منها على طبق ذلك الإخبار، ظهر إعجاز جديد.

٤ـ ومنها: الدرجة العليا من البلاغة التى ليست من مقدور البشر ـــ ونحن إذ جئنا بعد العرب الأولين، لانستطيع ان نصِلَ إلى كُنهِهَا؛ ولكنَّ القدرَ الذى

نعلمه، هو أن استعمال الكلماتِ الجَزْلة[1] والتركيبات العَذْبَةِ مع اللطافة وعدم التكلُّف، كما نجد ذلك في القرآن العظيم، لانجد مثلَه في أيِّ قصيدة من قصائد المتقدمين والمتأخرين، وهذا أمر ذوقي يدركه ـــ كما ينبغي ـــ المهرةُ من الشعراء، ولايتذوَّقه العامَّة.

وكذلك نعلم أن في أنواع التذكير الثلاثة، والجدل مع الكفار تُكْسَى المطالبُ في كل موضع حسبَ أسلوب السورة، لباسًا جديداً طريفًا، تقصُر يدُ المتطاول عن ذيله.

وإن تعسَّر إدراك ذلك على أحد فليتأمل في إيراد قِصَص الأنبياء في سورة الأعراف وهود والشعراء، ثم لِينظرْ إليها في الصافات، ثم ليقرأ هذه القصص نفسها في الذاريات، ليتجلى له الفرق.

وكذلك الحال في ذكر تعذيب العصاة وتنعيم المطيعين، فقد يذكر ذلك في كل مقام بأسلوب جديد؛ وهكذا تخاصُمُ أهل النار بعضِهم مع بعض، يتجلى في كل مقام في صورة جديدة؛ والكلام في هذا يطول.

وكذلك نعلم أيضًا أن رعايةَ مقتضى الحال الذى تفصيلُه في علم المعاني، واستعمال الاستعارات والكنايات، التي تكفَّل ببيانها علم البيان، مع مراعاة حال المخاطبين الأميين الذين يجهلون هذه الصناعاتِ، لايُتَصوَّر كلُّ ذلك أحسن مما يوجد في القرآن العظيم؛ وذلك لأن المطلوب في القرآن الكريم أن تُودَعَ في المخاطبات المعروفة[2] التي يعرفها كلُّ أحد من الناس، نكتةٌ رائقةٌ مفهومةٌ عند العامَّة، مرضيةٌ عند الخاصة؛ وهذا الأمر كالجمع بين الضدَّين، ليس من مقدور البشر، والله على كل شيء قدير، ولله دَرُّ الشاعر حيث يقول:[3]

يـزيـدُك وجهـُه حُسْنـا إذا مـا زدتـه نـظـرًا

---

(١) الجزل من الكلام: القوى الفصيح الجامع. (٢) الحِوار العام (٣) قد ذكر المصنف هنا شعرًا فارسيا، وهو

زفرق تا قدمش ہر کجا کہ می نگرم کرشمہ دامن دل می کشد کہ جا اینجاست

٥ ـ ومنها: وجهٌ لايتيسر فهمُه لغير المتدبرين فى أسرار الشرائع؛ وذلك: أن العلوم الخمسة نفسَها تدل على أن القرآن نازل من عند الله تعالى، لهداية بنى آدم؛ كما أن عالم "الطب" إذا نظر فى "القانون"[1] ولا حَظَ تحقيقه وتدقيقه فى بيان أسباب الأمراض وعلاماتها، ووصف الأدوية وخواصّها، لايَشُكُّ أن المؤلف كامل فى صناعة الطب؛ كذلك إذا علم العالِمُ بأسرار الشرائع الأشياءَ التى ينبغى تلـ[illegible]ـنها للناس لتهذيب نفوسهم، ثم يتأمل فى العلوم الخمسة، يَعْلَم قطعا: أن هذه الفنون قد وقعت موقِعَها، بحيث لايُتصور أحسنُ منه:

والشمسُ الساطعةُ تدل بنفسها على نفسها
فإن كنتَ فى حاجة إلى الدليـل فلا تُوَلِّ وجهك عنها[2]

الباب الرابع
فى
بيان مناهج التفسير وتوضيح الاختلاف الواقع فى تفاسير الصحابة والتابعين.

طوائف المفسرين:

لِيُعلم أن المفسرين عِدَّةُ أصناف:

● جماعة قصدوا روايةَ آثار مناسبة للآيات، سواء كان حديثا مرفوعا أو موقوفًا أو مقطوعًا[3] أو خبرا إسرائيليا ــــ وهذا طريق المحدثين.

---

(١) القانون فى الطب للشيخ الرئيس أبى على حسين بن عبد الله المعروف بابن سينا، المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (٢) ليس هذا بشعر، إنما هو ترجمة للشعر الفارسى:

آفتاب آمد دليلِ آفتاب گر دليلت بايد از وے رومتاب

(٣) الحديث المرفوع: مارُفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم. والحديث الموقوف: ما انتهى إلى الصحابى، والحديث المقطوع: ما انتهى إلى التابعى

●وفرقة قصدوا تأويلَ آيات الصفات والأسماء ؛ فمالم يُوافق منها مذهبَ التنزية[1] صرفوها عن الظاهر، وردوا على استدلال المخالفين ببعض الآيات ـــــ وهذا طريق المتكلمين.

●وقوم صرفوا عنايتهم إلى استنباط الأحكام الفقهية، وترجيح بعض المجتهدات على بعض والجوابِ عن تمسك المخالفين ـــــ وهذا طريق الفقهاء الأصوليين.

●وجمعٌ أوضحوا إعراب[2] القرآن ولغته، وأوردوا الشواهد من كلام العرب فى كل باب موفورةً تامةً ـــــ وهذا منهج النحاة اللغويين.

●وطائفة يذكرون نكات المعانى والبيان بيانا شافيًا، ويتفاخرون فى ذلك الباب ـــــ وهذا طريق الأدباء.

●واهتم بعضُهم برواية القراءات المأثورة عن شيوخهم، فلم يَدَعوا دقيقا ولا جليلا فى هذا الباب إلا جاؤا به ـــــ وهذه صفة القراء.

●وبعضهم يُطلقون اللسان بنكات متعلقة بعلم السلوك أو علم الحقائق[3] بأدنى مناسبة ـــــ وهذا مشرب الصوفية.

وبالجملة: فالمجال واسع، ويقصُد كلٌّ منهم تفهيمَ معانى القرآن الكريم، وخاض فى فن من الفنون، وتكلّم على قدر فصاحته وفهمه، واتّخذ مذهب أصحابه نصبَ عينيه؛ ولأجل ذلك اتّسع مجالُ التفسير اتّساعاً لايُحدُّ قدرُه، وصُنّفت كتب كثيرة لايحصرها عدد.

جوامع التفاسير

وقصد جماعة منهم إلى جمع ذلك كلّه فى تفاسيرهم، فمنهم من تكلّم بالعربية، ومنهم من تكلم بالفارسية، واختلفوا فى الاختصار والإطناب، ووسّعوا أذيال العلم.

---

(١)مذهب التنزيه: هو مذهب أهل السنة والجماعة فى مسألة الصفات المتشابهات.(٢) قوله إعراب القرآن يعنى نحو القرآن وصرفه(٣)علم السلوك: هوعلم الإحسان، وعلم الحقائق كالغاية له.

ما منَّ اللّٰه به علَيَّ في علم التفسير

وقد حصل للفقير ـــــ بحمد اللّٰه تعالى وتوفيقه ـــــ مناسبةٌ في كل فن من هذه الفنون ، وأَحَطتُ بِمُعْظَمِ اصولها، وبجملةٍ صالحةٍ من فروعها، وفُزتُ بنوع من التحقيق والاستقلال في كل باب من أبوابها، بوجه يُشْبِهُ الاجتهادَ في المذهب[1] والقى في خاطرى من بحر الجود الإلٰهى فنان أو ثلاثة من فنون التفسير، سوى الفنون المذكورة سالفاً، وإن سألتنى عن الخبر الصدق فأنا تليمذُ القرآن العظيم بلاواسطة؛ كما أنى أُوَيْسِيٌّ[2] في الاستفادة من روح النبى صلى اللّٰه عليه وسلم، وكما أنى مستفيد من الكعبة الحسناء [3] بدون واسطة، وكذلك متأثر بالصلاة العظمى[4] بغير واسطة:

ولو أنَّ لى فى كل مَنْبَتِ شَعرة لسانا لما استوفيتُ واجبَ حمدِه

وارى من اللازم أن أكتب كلماتٍ عديدةً في هذه الرسالة عن كل فن من هذه الفنون[5].

---

(١) الاجتهاد في المذهب: هو أن يكون الرجل مجتهدًا مستقلاً في الفروع لافي الأصول .(٢) نسبة إلى أويس بن عامر القَرَنى الزاهد التابعي وحديث فضله في صحيح المسلم في كتاب فضائل الصحابة (١٦ : ٩٤) كان أسلم في زمن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم وهو باليمن، وكان له أمٌّ، وكان بارًا بها ، فلم يسافر من اليمن للقاء النبى صلى اللّٰه عليه وسلم،واستفاد من روحه صلى اللّٰه عليه وسلم، فبلغ منازلَ السائرين، كذلك صاحبنا الإمام استفاد منه صلى اللّٰه عليه وسلم بلا واسطة وبدون لقاء .(٣)الكعبة الحسناء: كعبہ شریف والمسلمون يستفيدون منها بواسطة الصلاة؛ والكَمَلَة من الرجال يستفيدون منها بلاواسطة؛ والحسناء تأنيث الَحَسَنِ .(٤)الصلوات المفروضة والنافلة ، وكذا الصلوت الخمس كلها افراد الصلاة المطلقة الكاملة وهى الصلاة العظمى التى تتمثل في عالم المثال، فإن المعنويات لها أجسام هناك والمسلمون يتأثرون بها بواسطة افرادها ، وأما الذين بلغوا أقصى مدارج السالكين فيتأثرون بها بدون واسطة أيضًا وإليه الإشارة في قوله صلى اللّٰه عليه وسلم " جُعلت قرة عينى في الصلاة " ولكن مهما بلغ الرجل المنازلَ لايستغنى عن افرادها وإليه الإشارة في قوله صلى اللّٰه عليه وسلم :" أرحنا بها يابلال"(٥) يعنى من الفنون مناهجَ المفسرين، ثم اعلم أن الإمام تحدَّث في الفصل الأول عن تفسير المحدثين وفي الفصل الثانى عن بقية الأصناف .

الفصل الأول

فى

بيان الآثار المروية فى تفاسير أصحاب الحديث، وما يتعلق بها

قسمان من أسباب النزول

ومن جملة الآثار المروية فى كتب التفسير بيان سبب النزول ؛ وأسباب النزول على قمسين:

الأول: ان تقع حادثة يُمَحَّص بها إيمان المؤمنين ونفاقُ المنافقين، كما وقع ذلك فى غزوتَىْ أُحُدٍ والأحزاب ، فأنزل الله تعالى مدحَ اولئك وذمَّ هؤلاء، ليكون فَيْصَلاً بين الفريقين؛ وتقع فى أثناء ذكر الحادثة تعريضاتٌ كثيرة بخصوصياتها؛ فيجب ان تُشْرَحَ الحادثةُ بكلام مختصر ليتَّضِحَ على القارئ سياقُ الكلام.

والثاني: أن يكون معنى الآية تامًا بعموم صيغتها، من دون حاجة إلى معرفة القصة التى هى سبب النزول ، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب؛ والقدماءُ من المفسرين قد ذكروا تلك الحادثة بقصد استيعاب الآثار المناسبة للآية، أو بقصد بيان ما صدق عليه عمومُ الآية؛ وليس من الضرورى ذكر هذا القسم.

معنى قولهم:" نزلت الآية فى كذا"

وقد تحقَّق لدى الفقير: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كثيرًا ما كانوا يقولون: " نزلت الآية فى كذا" ويكون غرضُهم تصويرَ ما صدقتْ عليه الآية، أو ذكْرَ بعضِ الحوادث التى تشتملها الآية بعمومها، سواء تقدَّمت القصةُ على نزول الآية او تأخرت عنه، إسرائيليةً كانت القصة أو جاهلية أو إسلامية؛ تنطبق على جميع قيود الآية أو بعضها، والله أعلم.

فعُلم من هذا التحقيق: أن للاجتهاد فى هذا القسم[1] مدخلاً، وللقصص

---

(١) اى فى الصورتين المذكورتين ،وهما : تصوير ما صدقت الخ.

المتعددة هناك مجالا؛ فمن استحضر هذه النكتة يستطيع أن يعالج اختلاف أسباب النزول بأدنى تأمل.

أمور في التفسير لاطائل تحتَها

ومن جملة ذلك:[1]تفصيل قصة وقع في نظم القرآن تعريض بأصلها، فيستقصِيْ[2]المفسرون تفاصيلها من أخبار بني إسرائيل أو من كتُب السِّيَرِ فيذكرونها بجميع أجزائها.

وههنا أيضًا تفصيل: إن كانت الآية تشتمل على تعريض بالقصة، بحيث يتوقف العارف باللغة هناك، ويبحث عنها ، فذكرها من وظيفة المفسر؛ وما كان خارجا منها ـــــ مِثْلُ ذكر بقرة بني إسرائيل: أذكرًا كانت أم أنثى؟ ومثلُ بيان كلب أصحاب الكَهْفِ: هل كان أبقعَ[3]أم أحمر؟ ـــــ فذكره ممالا يعنيه؛ وكانت الصحابة رضي الله عنهم يكرهونه،ويعدُّونه من قبيل تضييع الأوقات.

القدماء ربما يفسِّرون على سبيل الاحتمال

وليُحفظ ههنا أيضًا نكتتان:

الأولى: ان الأصل في هذا الباب[4]إيرادُ القِصَص المسموعة، كما رُوِيتْ: من غير تصرُّف عقلي فيها،وأما طائفةٌ من قدماء المفسرين فيضعون ذلك التعريض نَصْبَ أعيُنهم، ويَفرضون له محمَلا مناسبا، ويبينونه على سبيل الاحتمال، فيشتبه الأمر على المتاخرين. ولمّا لم تكن أساليبُ البيان منقحةً في ذلك العصر، فربما يشتبه التفسير على سبيل الاحتمال بالتفسير مع الجزم، فيذكرون أحدهما مكان الآخر؛ وهذا أمر اجتهادي، وللنظر العقلي فيه مجال، ورَكْضُ جيادِ القيل والقال هناك ممكن.

ومن حفظ هذه النكتة فإنه يستطيع أن يحكم حكمًا فَصْلاً في كثير من مواضع الاختلاف بين المفسرين؛ ويمكن أن يعلم في كثير من مناظرات

(١)أي من الآثار المروية في كتب التفسير. (٢) استَقْصَى الأمر: بلغ أقصاه في البحث عنه(٣)الأبقع: سیاہ و سفید داغوں والا(٤)أي في بيان القصص في تفسير الآيات.

الصحابة رضى الله عنهم : أنها ليست آرائَهم القطعيةَ، بل هى بُحوث علمية، يتداولها المجتهدون فيما بينهم.

وعلى هذا المحمل يُحمِل العبد الضعيف قول ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوْا بِرُءُ وْسِكُمْ وَاَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[1]: "لاأجد فى كتاب الله إلا المسح، لٰكنهم أَبَوْا إلا الغَسل "[2] فالذى يفهمه الفقير: أنه ليس هذا بذهاب منه إلى وجوب المسح، وليس فيه جَزم بحمل الآية على ركنية المسح؛ بل الذى ثبت عند ابن عباس رضى الله عنهما هو الغَسْل؛ ولكنه يقرِّرهُنا إشكالاً، ويُبدى احتمالا، ليرى كيف يُطَبِّق علماءُ عصره فى هذا التعارض؟ وأىَّ مسلك يسلكونه؟ فزعم الذى لم يطَّلِعْ على حقيقة محاورات السلف هذا قول ابن عباس رضى الله عنه ، وعدَّه مذهبا له حاشاه! ثم حاشاه!!

النقل عن بنى إسرائيل دَسِيْسَة دخلتْ فى ديننا

النكتة الثانية: هى أن النقل عن بنى إسرائيل دسيسة[3] دخلت فى ديننا بعد ما كانت قاعدةُ :" لاتصدقوا أهلَ الكتاب ولاتكذِّبوهم "[4] مقررةً؛ فلزم لأجل ذلك أمران:

الأول: أن لايُرْتكب النقلُ عن أهل الكتاب إذا وجد فى سنة نبينا صلى الله عليه وسلم بيان لتعريض القرآن؛ مثلاً حينما وجُد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمٰنَ ،

---

(١) سورة المائدة ٦(٢) والأثر فى روح المعانى (٦:٧٧) ومعناه :أن ظاهر الكتاب يوجب المسح على قراء ة الجر ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابَه لم يفعلوا الإالغسل؛ ففى كلامه هذا إشارة إلى أن قراء ة الجر مؤولة متروكة الظاهر بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم (روح المعانى)(٣)الدسيسة: ما أكمِنَ من المكر والعداوة(خفيہ سازش وعداوت) (٤) رواه البخارى كمافى المشكوة رقم الحديث ١٥٥ كتاب الإيمان باب الاعتصام الخ، وفيه النهى عن تصديق أهل الكتاب فيما لايعرف صدقه من قبل الكتاب والسنة؛ وفى النقل عنهم، من غير رَدٍّ عليهم؛ تصديق لهم فلا يجوز، ولكن الناس تساهلوا فى هذا الباب .

والْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا، ثُمَّ أَنَابَ﴾[1] محمَل فى السنة النبوية ــــ وهو قصةُ تركِ"إن شاء الله" والمؤاخذة عليه ــــ فأَىُّ حاجة إلى ذكر قصةِ صَخْرٍ المارد؟!.

والثاني: أن يُتكلَّم بقدر اْقتضاء التعريض نظرًا إلى قاعدة:" الضرورى يتقدَّر بقدر الضرورة"[2]،لِيُمْكن تَصديقه بشهادة القرآن، ولِيُكفَّ لسانه عن الزيادة عليه.

تفسير القرآن بالقرآن

وههنا نكتة لطيفة إلى الغاية ، لابد من معرفتها، وهى: أنها قد تُذكر فى القرآن العظيم قصةٌ [3] فى موضع بالإجمال، وفى موضع آخر بالتفصيل ،كما قال تعالى :﴿إِنِّىْ اَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُوْنَ﴾[4]ثم قال بعد ذلك:﴿اَلَمْ اَقُلْ لَكُمْ: إِنِّىْ اَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُوْنَ وَمَاكُنتُمْ تَكْتُمُوْنَ﴾[5] فهذا القول الثانى هو القول الأول بنوع من التفصيل ، فيمكن أن يُعلَم به تفسيرُ ذلك الإجمال، ويَرْكُض من الإجمال إلى التفصيل.

ومثلاً: ذَكَرَ فى سورة مريمَ قصةَ سيدنا عيسى عليه السلام إجمالاً، فقال تعالى:﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا،وَّكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًا﴾[6]، وذُكرتْ فى سورة آل عمران تفصيلاً، فقال تعالى﴿وَرَسُوْلاً إِلىٰ بَنِىْ إِسْرَائِيْلَ: أَنِّىْ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ ﴾[7]الآية، ففى هذه المقولة بشارة تفصيلية، وتلك المقولةُ بشارة إجمالية؛ فمن ثَمَّ استنبط العبد الضعيف أن معنى الآية: "ورسولا إلى بنى إسرائيل ، مُخْبِرا بأنى قد جئتكم" وهذا كلُّه داخل فى حيِّز البشارة ، ليس بمتعلق بمحذوف، كما أشار إليه السُّيوطى، حيثُ قال[8]: "فلما بعثه الله تعالى إلى بنى إسرائيل قال لهم: " إنى رسول الله إليكم،بأنى قد جئتكم " والله أعلم.

---

(١)سورة صٓ ٣٤(٢) القاعدة الحادية والعشرون فى شرح القواعد الفقهية للشيخ الزرقاء (ص ١٣٣).(٣)يعنى مضموناً، لاقصةً معروفةً فقط(٤) سورة البقرة ٣٠(٥) سورة البقرة ٣٣(٦) سورة مريم ٢١(٧) سورة آل عمران ٤٩ (٨) تفسير الجلالين ص ٥١.

وجه اختلاف السلف فى شرح غريب القرآن وكيف يَخرج المفسرُ من العهدة فى ذلك؟

ومن جملة ذلك:[1] شرح الغريب؛ ومبناه على تَتَبُّع لغة العرب، أو التفطُّن[2] بسياق الآية وسباقها[3] ومعرفةِ مناسبةِ اللفظ بأجزاء الجملة التى وقع هوفيها؛ فههنا أيضًا للعقل مدخل، وللاختلاف مجال؛ لأن الكلمة الواحدة تأتى فى لغة العرب لمعان شتّى، وتختلف العقول فى تتبُّع استعمالات العرب، والتفطُّنِ بمناسبة السابق واللاحق؛ ولهذا اختلفت أقوال الصحابة والتابعين رضى اللّٰه عنهم فى هذا الباب، وسلك كل منهم مسلكًا.

فلا بد للمفسر المنصف: أن يَزِنَ شرح الغريب مرتين:

●مرةً فى استعمالات العرب حتى يعرف : أىُّ وجهٍ من وجوهها أقوى وأرجح.

●ومرة أخرى فى مناسبة السابق واللاحق، حتى يعلَمَ :أىُّ الوَجْهين أولى وأقعد[4] بعد إحكام المقدِّمات ، وتتبع موارد الاستعمال، وتفحُّص الآثار.

استنباطات العبد الضعيف فى شرح الغريب

وقد استنبطَ الفقير فى هذا الباب استنباطاتٍ طازجة[5] لايخفى لطافتها إلا على المتعسِّف[6] غليظِ الطبع، مثلاً:

●قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلىٰ﴾[7] حملتُه على معنى: "تكافُؤ القتلىٰ، ومشاركة بعضهم مع بعض فى حكم واحد" لئلا يحتاج فى تفسير قوله تعالى ﴿الأُنْثىٰ بَالأُنْثىٰ﴾ إلى مَؤُوْنَةِ[8] النسخ، ولايضطر إلى توجيهات تضمحِلُّ بأدنى التفات.

---

(١)أى من الآثار المروية فى كتب التفسير.(٢) تفطّن به أى تنبّه له (٣) السياق ــــ بالياء التحتانية ــــ هو القرينة اللاحقة، والسباقــــ بالباء الموحّدة ــــهو القرينة السابقة .(٤) الأقْعَدُ والقعيد : الأقرب (٥) الطازج: الجديد الحديث معرب تازه(٦) المتعسف ضد المنصف من تعسّف فلانا: ظلمه(٧) سورة البقرة ١٧٨ .(٨)المؤونة: محنت، بوجھ، مشقت۔

●وكذلك حملتُ قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾[1] على معنى: "يسئلونك عن الأشهُر" أى أشهُر الحج؛ فقال تعالى: ﴿هِىَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾

●وهكذا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِىْ اَخْرَجَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾[2] أى: لأول جمع الجنود، لقوله تعالى: ﴿وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حٰشِرِيْنَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُوْدُه﴾[4]؛ وهذا أوفق بقصة بنى النضير، وأقوى فى بيان المنَّة.

اختلاف المتقدمين والمتأخرين فى معنى "النسخ" مما أوجب الاختلاف فى عدد الآيات المنسوخة

ومن جملة ذلك: بيان الناسخ والمنسوخ؛ وينبغى أن تُعرف هنا نكتتان:

الأولى: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كانوا يستعملون "النسخ" بغير المعنى الاصطلاحى المعروف بين الأصوليين؛ ومعناهم قريب من المعنى اللغوى الذى هو "الإزالة".

فمنى النسخ عندهم: إزالةُ بعض أوصاف الآية المتقدِّمة بالآية المتأخرة، سواء كان ذلك ببيان انتهاء مدة العمل بها، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو ببيان كون قيد من القيود مُقْحما، أو بتخصيص عام، أو ببيان الفارق بين المنصوص وبين ما قيس عليه ظاهرا، أوما أشبه ذلك.

وهذا باب واسع، وللعقل فيه مجال، وللاختلاف فيه مساغ، ولهذا أبلغوا الآيات المنسوخةَ إلى خمس مِائَة آية.

ربما يُجعل الإجماعُ علامةً للنسخ

والثانية: أن الأصل فى بيان النسخ بالمعنى الاصطلاحى هو معرفة تاريخ النزول؛ ولٰكنهم ربما يجعلون إجماعَ السلف الصالح، أواتفاق جمهور العلماء على شيء علامةً للنسخ، فيقولون به؛ وقد فعل ذلك كثير من الفقهاء؛ ويمكن

---

(١) سورة البقرة ١٨٩ (٢) سورة الحشر ٢ (٣) سورة الشعراء ٣٦ (٤) سورة النمل ١٧.

ان يكون فى مثل هذه المواضع،ما تصدُق عليه الآية غيرَما ينطبق عليه الإجماع.

وبالجملة: ففى الآثار التى تنبىء عن النسخ غَمْر[1] عظيم،يصعب الوصول إلى غوره.

أمور أُخَرُ يذكرونها فى التفاسير

وللمحدثين أشياء أخرُ خارجة عن هذه الأقسام، يوردونها أيضًا فى تفاسيرهم، كمناظرة الصحابة رضى الله عنهم فى مسئلة واستشهادِهم بآية، أوتمثيلهم بآية من الآيات، أو تلاوةِ النبى صلى الله عليه وسلم آيةً من الآيات، أو روايةِ حديث يوافق الآية فى أصل معناها، أو طريقِ التلفظ بالنقل عن النبى صلى الله عليه وسلم أو الصحابةِ رضى الله عنهم أجمعين.

الفصل الثانى
فى
بقية لطائف هذا الباب

الكلام حول استنباط الأحكام:

ومن جملة ذلك:[2] استنباط الأحكام ــــ وهذا الباب واسع جدًا، وللعقل مجال فسيح فى الاطلاع على فَحَاوَى الآيات، وإيماء اتها، واقتضاء اتها؛[3] والاختلاف بحذافيره[4] حاصل فيه؛ وقد ألقى الله تعالى فى رُوع الفقير حَصْرَ

---

(١) الغَمْر: الماء الكثير ومعظم البحر والجمع غِمار وغُمور. (٢) أى من جملة فنون التفسير ومناهجه (٣) الفَحْوى: ان يُفهم الكلامُ حالَ المسكوت عنه بواسطة المعنى الحاملِ على الحكم، مثلُ" لاتَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ" يُفهَم منه حرمةُ الضرب بطريق الأولىٰ، والإيماء: ان يكون أداء المقصود بعبارات بإزاء الاعتبارات المناسبة، كالتقييد بالوصف والشرط يدلان على عدم الحكم عند عدمهما، والاقتضاء : ان يُفهم الكلامُ حالَ المسكوت عنه بواسطة لزومه للمستعمل فيه عادة أو عقلاً أو شرعًا، كقوله: "بعتُ" يقتضى سَبْقَ الملك شرعًا. (٤) بحذافيره اى باسره جمع الجِذْفار والحُذْفور: الجانب والناحية .

الاستنباطات فى عشرة أقسام[1]، والترتيبَ فيما بينها؛ وتلك المقالة ميزان عظيم لوزن كثير من الأحكام المستنبطة[2].

التوجيه فى تفسير القرآن الكريم

ومن جملة ذلك: التوجيه ــــ وهو فن كثير الشُّعَب ، يستعمله الشراح فى شرح المتون، ويُختبر به ذكائهم، ويَظهر به تفاوتُ درجاتهم.

وقد تكلّم الصحابة رضى الله عنهم ــــ وإن لم تكن أصولُ التوجيه منقّحة فى عصرهم ــــ فى توجيه الآيات الكريمة، وأكثروا منه.

وحقيقة التوجيه: أنه إذا وقعت صعوبة فى فهم كلامِ مؤلِّفٍ، يقف الشارح هناك، فيحُلُّ تلك الصعوبة.

ولمالم تكن أذهانُ قُرّاءِ الكتاب فى مرتبة واحدة، لم يكن "التوجيه" أيضًا فى مرتبة واحدة؛ فالتوجيه بالنسبة إلى المبتدئين غيرُ التوجيه بالنسبة إلى المنتهين: إذربما يخطرببال المنتهى صعوةُ فَهْم، فيحتاج إلى حلها، والمبتدى غافل عنها، بل لا يقدر أن يُحيط بها؛ وكثير من الكلام يستصعبُه المبتدى، ولا يحصل فى ذهن المنتهى شيء من الصعوبة هناك؛ فالذى أحاط بجوانب العقول، يراعي حالَ جمهور القراء، ويتكلم على قدر عقولهم.

فعمدة التوجيه.

- فى آيات الجدل: تحريرمذاهب الفِرَق الباطلة، وتنقيح وجوه الإلزام.
- وفى آيات الأحكام: تصوير صورة المسئلة، وبيان فوائد القيود، من الاحتراز أو غيره.

---

(١) وهى: ١ـ ما صُرِّح فيه بثبوت الحكم، للموضوع له عينا، وسيق الكلام لأجله ٢ و٣ و٤ـ ما عُدم فيه أحد القيود الثلاثة ٥ـ الفحوى ٦ـ الاقتضاء ٧ـ الإيماء ٨ـ الدرج فى العموم ٩ـ الاستدلال بالملازمة أو المنافاة ١٠ـ القياس (٥) والمقالة فى حجة الله البالغة (١: ٣٠٢)

●و في آيات التذكير بآلآء اللّٰه: تصوير تلك النِّعَم وبيان مواضعها الجزئية .
●وفي آيات التذكير بأيام اللّٰه : بيان ترتُّبِ بعض القصص على البعض، وإيفاءُ حقّ التعريض الذي يَرِدُ في أثناء سَرْدِ القصة.
●وفي التذكير بالموت وما بعدَه: تصوير تلك الأمور، وتقرير تلك الحالات.

أنواع التوجيه:

ومن فنون التوجيه:

١ ـ تقريب ما كان بعيدا عن الفهم، بسبب عدم الألفة به.
٢ـ ودفع التعارض بين الدليلين، أو التعريضين، أو فيما بين المعقول والمنقول.
٣ـ والتفريق بين الملتَبِسَيْن.
٤ ـ والتطبيق بين المختلفين.
٥ـ وبيان صدقِ الوعدِ الذي أشير إليه في الآية.
٦ـ وبيان كيفية عمل النبي صلى اللّٰه عليه وسلم بما أُمر به في القرآن العظيم .

وبالجملة: فالتوجيه كثير في تفسير الصحابة؛ ولايُقضى حقُّه حتى يُبَيِّن المفسر وجهَ الصعوبة مفصلاً، ثم يتكلم في حلِ الصعوبة بالتفصيل ، ثم يَزِنُ تلك الأقوال وزنا عَدْلاً

غلوُّ المتكلمين

وأما غلو المتكلمين في تأويل المتشابهات وبيانِ حقيقةِ الصفات، فليس هذا من مذهبي، بل مذهبي مذهب مالك والثوري وابن المبارَك وسائر المتقدمين؛ وهو: إمرَارُ المتشابهات على ظواهرها،وتركُ الخوض في تأويلها.

الجدال في القرآن

والنزاعُ في الأحكام المستنبطة،●وإحكامُ مذهبِ نفسِه، وهَدْمُ مذهب الآخرين،والاحتيالُ لدفع الأدلة القرآنية،كلُّ ذلك ليس بصحيح عندي،

وأخشى أن يكون ذلك من قبيل " التَّدَارُؤُ بالقرآن"[1] وإنما اللازم أن يَطْلُب مدلولَ الآيات، ويتخذه مذهباله، سواء ذهب إليه الموافق أو المخالف.

لغة القرآن

وأما لغة القرآن فينبغي أخذُها من استعمالات العرب الأولين، وأن يعتمد كليًّا على آثار الصحابة والتابعين رضى الله عنهم.

نحوُ القرآن

وقد وقع فى نَحْوِ القرآن خلل عجيب، وهو أن طائفة من المفسرين اختاروا مذهبَ سيبويهِ، فيؤولون كلَّ ماخالف مذهبه، وإن كان التأويل بعيدًا؛ وهذا لايصح عندى، بل ينبغى اتباع الأقوى ، والأوفقِ بالسياق والسباق، سواء كان مذهبَ سيبويهِ أو مذهب الفراء[2] .

وقد قال عثمان بن عفان رضى الله عنه فى مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيْمِيْنَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُوْنَ الزَّكوةَ﴾[3]: "ستُقِيْمُهَا العرب بألسِنَتِهَا"؛ وتحقيق هذه الكلمة عندى: أن مخالفة التعبيرات المشهورة أيضًا تعبير صحيح؛ وكثيرا ما يتفق للعرب الأولين: أن يجرىَ على ألسنتهم فى أثناء الخطب والمحاورات ما يخالف القاعدة المشهورة؛ ولما نزل القرآن الكريم بلغة العرب الأولين ، فلا عجب: أن جاء ت " الياء " فى موضع " الواو" أحيانا، او وقع المفرد مقام التثنية، أو ورد المؤنث مقام المذكر؛ فالمحقق عندى: أن يفسَّر" والمقيمين الصلاة " بمعنى المرفوع ، والله أعلم.

علم المعانى والبيان

وأما المعانى والبيان فهو[4] علم حادث بعد انقراض عصر الصحابة

---

(١) التدارؤ. التدافع، تدارئًا. تدافعالى الخصومة ونحوها؛ ويحرم التدارُؤ بالقرآن بقول النبى صلى الله عليه وسلم: "إنما هلك من كان قبلكم بهذا: ضربوا كتابَ الله بعضه ببعض." (٢) هويحى بن زياد ابو زكريا الكوفى، المعروف بالفرّاء توفى سنة ٢٠٧هـ (٣) سورة النساء ١٦٢. (٤) أرجع ضمير المفرد، لأنهما كعلم واحد.

والتابعين رضى الله عنهم. فما كان منه مفهوما فى عرف جمهور العرب فهو على الرأس والعين؛ وأما ماكان منه مخفيا لايدركه إلا المتعمقون من أرباب الفن، فلا نسلم أنه مطلوب فى القرآن الكريم.

إشارات الصوفية

وأما إشارات الصوفية واعتباراتهم فإنها ليست فى حقيقة الأمر من علم التفسير؛ بل يحدُث عند استماع القرآن الكريم أشياءُ فى قلب السالك، وتتولَّد تلك الأشياءُ فى قلبه بين النظم القرآني، وبين الحالة التى يتَّصف بها، أو بين المعرفة التى يملكها؛ كمثل رجل يسمع قصة ليلى والمجنون، فيتذكر عشيقته، ويستعيد الذكريات التى كانت بينه وبينها.

فن الاعتبار

وهُنا[1] فائدة مهمة، ينبغى الاطلاع عليها، وهى: أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل" فن الاعتبار"[2]معتبرًا، وسلك ذلك المنهج ليكون سنةً لعلماء الأمة، وفتحًا لباب العلوم الموهوبة لهم:

● كما أن النبى صلى الله عليه وسلم تمثَّل بقوله تعالى:﴿فَامَّا مَنْ اَعْطَى وَاتَّقَىٰ﴾[3]فى مسئلة القدر، وإن كان منطوقُ الآية: أن من عمل بهذه الأعمال نُهديه إلى طريقِ الجنة والنعيم، ومن عمل بضدها نفتح له طريقَ النار والتعذيب؛ ولكن يمكن أن يُعلم بطريق" الاعتبار": أن الله تعالى خلق كلَّ أحد لحالة خاصة، ويُجرى عليه تلك الحالةَ من حيث يدرى أولا يدرى؛ فبهذا الاعتبار كان لهذه الآية الكريمة ارتباطٌ بمسئلة القدر.

● وكذلك قوله تعالى:﴿وَنَفْسٍ وَّمَا سَوّٰاهَا، فَاَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وَتَقْوٰاهَا﴾[4] فالمعنى المنطوق لهذه الآية الكريمة: أن الله تعالى عرَّف كل نفس بالبر والإثم؛ ولكن لما كانت بين خلقِ الصورة العلمية للبر والإثم، وبين البر

---

(١) أى عند ذكر اعتبارات الصوفية. (٢) الاعتبار :هو العبور والانتقال من الشيء إلى غيره؛ وهو أعم من القياس الشرعى. (٣) سورة الليل ٥ (٤) سورة الشمس ٧

والإثم الموجودان بالإجمال وقت نفخ الروح مشابهةٌ يمكن الاستشهاد بهذه الآية في مسئلة القدر أيضًا من طريق الاعتبار؛ والله أعلم.

الفصل الثالث

في

بيان غرائب [1] القرآن الكريم

لِيُعلم أن غرائب القرآن الكريم التي خُصِّصت في الأحاديث بمزيد من الاهتمام وببيان الفضل[2] أنواع:

١ـ فالغريبة في فن التذكير بآلاء الله: هي آية جامعة لجملة عظيمة من صفات الحق تعالى، مثلُ آية الكرسي، وسورة الإخلاص، وآخر سورة الحشر، وأول سورة المؤمن.

٢ـ والغريبة في فن التذكير بأيام الله: هي آية يبيِّن فيها قصة نادرة، أوقصة معلومة بجميع تفاصيلها، أوقصة جليلة الفوائد التي تكون محلاً للاعتبارات الكثيرة؛ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة موسى والخَضِر [3] عليهما السلام: "وَدِدْنا أن موسى كان صبرحتى يَقُصَّ الله علينا من خبرهما"[4]

٣ ـ والغريبة في فن التذكير بالموت وما بعدَه: هي آية تكون جامعة لأحوال القيامة مثلاً ، ولذا ورد في الحديث الشريف: " من سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رَأيُ عينٍ، فليقرأ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾﴿وَإِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾[5].

---

(١)الغرائب جمع غريبة، لأنيث الغريب من غَرُبَ الكلامُ غَرَابَةً:خفي؛ والمراد هنا: الطريقة النادرة البديعة (انوكهی آيات)(٢) اى السور والآيات التى وردفيها فضل خاص ولها ميزة خاصة.(٣)الخَضِر- بفتح فكسر- الزرع الغضُّ الأخضر. سمى العبد الصالح به لأنه قعد مرة في مكان يابس فاخضرت الأرض كما في رواية البخارى رقم الحديث ٣٤٠٢ (٤) صحيح البخارى ص ٦٨٧ كتاب التفسير في تفسير سورة الكهف (٥) سنن الترمذى (٢: ١٦٨)

٤ـ والغريبة في فن الأحكام: هي آية تكون مشتملةً على بيان الحدود، وتعيين الأوضاع الخاصة، كمثل تعيين مائة جَلْدة في حد الزنا، وتعيين ثلاثِ حِيَض أو ثلاثة أطهار لعدة المطلقة، وتعيين أنصباء المواريث.

٥ ـ والغريبة في فن الجدل: هي آية يَرِدُ فيها سَوْقُ الجواب بنهج غريب، يقطع الشبهةَ بأبلغ وجهٍ، أو يُبَيَّن فيها حالُ فريق من تلك الفِرَقِ بمثلٍ واضح، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِيْ اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[1]؛ وكذا يبيَّن فيها شناعةُ عبادة الأصنام، والفرقُ بين مرتبة الخالق والمخلوق، والمالك والمملوك بأمثلة عجيبة؛ أو إحباطُ أعمال أهل الرياء والسُّمعة بأبلغ وجه.

٦ ــ وغرائب القرآن ليست بمحصورة في الأبواب المذكورة، فأحيانا تكون غريبة من جهة بلاغة القرآن، وإناقة أسلوبه، مثل سورة الرحمٰن؛ ولهذا سميت في الحديث بعروس القرآن[2]؛ وأحيانا تكون غريبة من جهة تصوير صورة سعيد وشقي.

ظَهْر القرآن وبَطْنه

لقد ورد في الحديث الشريف: " لكل آية منها ظَهْر وبطن، ولكل حرف حدٌّ ولكلِّ حدّ مُطَّلَع"[3] فينبغي ان يُعْلَم ان ظهر هذه العلوم الخمسة: هو مدلول الكلام ومنطوقه؛ والبطن:

- في التذكير بآلآء الله: هو التفكُر في آلاء الله، ومراقبةُ الحق سبحانه وتعالى.
- وفي التذكير بأيام الله: هو معرفة مناط المدح والذم، والثواب والعقاب، من تلك القصص، والاتّعاظ بها.
- وفي التذكير بالجنة والنار: هوظهور الخوف والرجاء، وجَعْلُ تلك الأمور كأنها بمَرْأًى منه.

---

(١) سورة البقرة ١٧ (٢) المشكوة ١٨٩ في فضائل القرآن (٣) رواه الطبراني في الكبير والبغوي في شرح السنة، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بـ (ح) أي أنه حديث حسن؛ وأوله: " أنزل القرآن على سبعة أحْرُف، لكل حرف منها الخ وفي رواية: لكل آية منها الخ.

●وفي آيات الأحكام: هو استنباط الأحكام الخفيّة بالفَحَاوَى والإيماءات.
●وفي مُحَاجَّة الفِرَقِ الباطلة: هو معرفةُ أصلِ تلك القبائح، وإلحاق مثلها بها.
ومُطَّلَع الظهر: هو معرفة لغة العرب والآثار المتعلقة بعلم التفسير.
ومطلع البطن: هو لطفُ الذهن واستقامة الفهم، مع نور الباطن وسكينة القلب والله أعلم.

الفصل الرابع
في
بيان بعض العلوم الوهبية

من العلوم الوهبية في علم التفسير التي سبقت الإشارةُ إليها:

١ـ تأويل قصص الأنبياء عليهم السلام؛ وللفقير في هذا الموضوع رسالة مسماة بتأويل الأحاديث[1] والمراد من التأويل: هو أن يكون لكل قصة وقعت مبدأ من استعداد الرسول واستعداد قومه بحسب تدبير الله الذي أراده في ذلك الوقت؛ وكأنه أشار إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾

٢ـ ومنها:تنقيح العلوم الخمسة التي هي منطوق القرآن العظيم؛ وقد مَرَّ تفصيلها في أول الرسالة، فَلْيُرْجَعْ إليه.

٣ـ ومنها: ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية، بوجه قريب من النص العربي في مقدار الكلمات، وفي التخصيص والتعميم، وغير ذلك؛ وسميتها بـ "فتح الرحمٰن في ترجمة القرآن" وقد تركتُ هذا الشرط في بعض المواضع خوفا من عدم فهم القارئ بدون تفصيل.

٤ ـ ومنها: علم خواصّ القرآن الكريم؛ وقد تكلّم جماعة من المتقدمين في

(١)رسالة مطبوعة، قصد المصنف فيها إثبات المعجزات والتدليل عليها للفلاسفة والعقلانيين؛ولكن تأويلاته فيها لايتفق كليا مع ظواهر النصوص، فليتنبه له

خواص القرآن من وجهين: وجهٍ كالدعاء، ووجهٍ كالسّحر، أعوذ بالله منه؛ وقد فتح الله على الفقير بابًا وراء ما نُقل من خواص القرآن، ووَضَعَ في حِجْرِيْ جميعَ الأسماء الحسنى، والآيات العظمى، والأدعية المباركة مرة واحدة، وقال:" هذاعطاؤنا للاستعمال"؛ ولكنَّ كلَّ آية واسم ودعاء مشروط بشروط، لاتضبطها قاعدة؛ بل قاعدتها: انتظارعالَم الغيب؛ كمايكون في حالة الاستخارة، حتى ينظر بأيِّ آية او اسم يشار إليه من عالم الغيب؛ فيقرأ[1] تلك الآية أو الاسم على طريقة مقررة عند أهل الفن.

وهذا ماقصدت إيراده في هذه الرسالة،والحمد لله أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.[2]

---

(١) قوله: فيقرأأى للمريض أو لنفسه؛ فهذا من الرُقى المسنونة(٢) والفصل الخامس الذى يبحث فيه عن الحروف المقطعات خارج من الباب الرابع، كما يدل عليه هذا الاختتام،وكذا ليس بشامل فى الدرس فلذا حذفناه من الكتاب، إذ ليس فيه كبير فائدة.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على النبى الكريم وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين